صالح محمد الهلابي

السّلطعون

رواية

دار بسمة للنشر الإلكتروني

السلطعون

اسم الكتاب: السلطعون

اسم الكاتب: صالح محمد الهلابي

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-441-260426

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2026م / 1447هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

@ bassmabook

bassmabook@gmail.com

المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. ولا يجوز بأيّ صورة نشرَ أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيٍّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

السلطعون

رواية

صالح محمد الهلابي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح والدتي

"لولوة بنت عبد الرحمن النذير"
التي رحل جسدها عن الدنيا،
لكن روحها ما زالت تسكن قلوبنا وتحيط بنا بدعائها
وذكراها.

أُهدي هذه الرواية إلى روحها الطاهرة.

"يسخر من الجروح كل من لا يعرف الألم".

السلطعون

حين يقع **السلطعون** في قبضة مفترسه، لا يستسلم؛ بل يمـــارس ذكـــاء "التضـــــحية"، فيفصـــل طرفًـــا مـــن جســـده ليشـــتري حياتـــه، مـــــدركًا أن الله سيعوضـــــه في "انســــــلاخه" القادم بطرفٍ أقوى.

نحـن البشرـ أيضًـا نفقـد أجـزاءً مـن أرواحنـا في معـارك الحياة، لكن الفرق يكمن في "المصدر"؛ فجروحنا لا تأتي مـن مفترسـين عـابرين، بـل مـن **بشرـ مثلنـا**؛ لـذا، فـإن مـا نفقده لا ينمو من جديد بسهولة، لأن الندبة التي يتركها الإنسان في أخيه الإنسان.. لا يعالجها مجرد وقت.

1
"الحكاية المسكوت عنها"

جلس فالح على كرسيِّه الخشبي المعتاد، يراقب أحفاده وهم يركضون ويضحكون في ساحة البيت الواسعة المطلة على الحديقة، كان المشهد بالنسبة له لوحة نابضة بالحياة؛ أولاده وأحفاده مجتمعون بلا خوف، بعد أن انزاحت غمامة فيروس كورونا التي خيّمت على العالم لفترة طويلة.

وسط تلك اللحظات المبهجة، قطع فالح ضحكاتهم بسؤال بدا عفويًا لكنه كان يحمل عمقًا مفاجئًا:

- ماذا سرقت منا كورونا؟

ساد صمت ثقيل، كأن السؤال سحب الأكسجين من المكان. لم يجرؤ أحد على الإجابة، لاحظ فالح ذلك، فبادر بتوضيح نبرته:

– كورونا لم تكن مجرد جائحة، بل كانت درسًا قاسيًا ... تعلمنا منها الكثير .

وقبل أن يُكمل كلامه، قاطعته ابنته الصغرى بحماسة:

– العزلة أعادت لي شغفي بالرسم... اكتشفت أنني كنت أملك شيئًا جميلًا قد أهملته لسنوات.

ضحك محمد، الابن الأكبر، وقال مازحًا:

– بيكاسو العائلة! أين لوحاتك إذًا؟ نشتري واحدة وندعم الفنانة الناشئة!

انفجر الجمع ضاحكًا، واحمرّ وجه أخته الصغيرة من الإحراج، فبادر فالح لرد اعتبارها:

– وأنت يا بني، أكثر من تأثر بالعزلة... سمعت من أطفالك أنك لجأت للعمل مع تطبيقات التوصيل للهروب من الجلوس الطويل، بسبب فرط حركتك!

ضحك الجميع من جديد، لكنها هذه المرة كانت ضحكة مليئة بالدفء والحميمية. اقتربت الابنة الصغرى من والدها، تستظل بحنانه من نظرات أخيها.

ارتشف فالح قهوته الأمريكية المفضلة، ثم قال بصوت منخفض:

– كورونا سلبت منا أعظم ما نملك... **الحرية. تلك النعمة التي لا نشعر بقيمتها إلا إذا سُلبت منا.** فحين تُقيَّد، حتى لو لم تكن ترغب في الحركة، يضيق بك المكان.

تـداخل فيصـل، الابـن الأوسـط والمُلقّـب بيـنهم بـ "فيلسوف العائلة"، وسأل:

– هل حريتنا مثل حرية طائر في قفص؟

ابتسم فالح وقال بإعجاب:

– يا فيصل، لو منعونا من السفر حتى دون أن تكون لدينا نية للسفر، سنشعر بالضيق فقط لأن القرار لم يعد بأيدينا... مجرد أن تُقيَّد، يبدأ الصراع بداخلك.

ثم، وفي لحظة لم يتوقعها أحد، تجرأ فيصل وطرح سؤالًا كان الجميع يتجنبه:

– سمعنا أنك قضيت أسبوعًا في السجن خلال أحد أعياد الفطر... هل حدثتنا عن تلك التجرِبة؟

عمّ الصمت، كأن الزمن توقف. تحرّك شيء في أعماق فالح، جرح قديم حسب أنه اندمل، فإذا به ينزف من جديد.

نظر إلى وجوه أبنائه، قرأ في نظراتهم فضولًا مشوبًا بالحذر، وشعر أنهم يعرفون جزءًا من الحكاية، لكنهم لم يملكوا الجرأة على المواجهة.

تكلم بهدوء:

– سأكون صادقًا معكم... رغم مرور السنين، لم أنسَ ما حدث لي ولأصدقائي، تجربة السجن لا تُنسى، ليست مجرد حبس خلف جدران، بل امتحان للنفس والكرامة.

بلّل ريقه بماء بارد ثم أكمل:

- عشتُ زمنًا بين أناسٍ صُنِّفوا في نظر المجتمع مجرمين... لكنني حين اقتربت منهم، اكتشفت أن الحكاية لم تكن دائمًا كما تُروى من الخارج. بعضهم أخطأ فعلًا، وسقط تحت وطأة قرارٍ متسرّع، وبعضهم الآخر لم يكن سوى ضحية لحظة ضعفٍ عابرة غيّرت مسار حياته إلى الأبد. جلستُ إليهم، أصغيت لقصصهم بصمتٍ طويل، ورأيت خلف القسوة وجوهًا أنهكها الندم، وقلوبًا تبحث عن فرصةٍ جديدة للحياة.

سمعت حكاياتٍ موجعة، تختلط فيها الحسرة بالأمل، وتعلّمت دروسًا لن تمحوها السنوات من ذاكرتي. **أدركت أن الخطأ قد يكون لحظة، لكن العقوبة الاجتماعية قد تمتد عمرًا كاملًا.**

فالمجتمع كثيرًا ما أغلق أبوابه في وجوههم، حتى بعد أن دفعوا ثمن أخطائهم كاملًا، وكأن العقوبة لا تنتهي عند أسوار السجن. وهكذا، حين تضيق بهم الحياة وتُوصَد كل الطرق، لا يجد بعضهم سوى الباب ذاته... باب السجن، يعودون إليه لا رغبةً فيه، بل لأن الأبواب الأخرى أُغلقت قبل أن يمنحوهم فرصة البداية من جديد.

قبل لحظاتٍ فقط كانت الأجواء تضجّ بالبهجة والضحكات، لكنّها سرعان ما انقلبت إلى صمتٍ مثقل بالتأمّل، كأن شيئًا خفيًا مرّ بينهم فأعاد لكلّ واحدٍ حساباته في داخله. خفَتت الأصوات، وتوارَت الابتسامات، وبدا المكان وكأنه يشاركهم لحظة مراجعة صامتة، حيث يتحدّث كلّ واحد مع نفسه دون أن ينطق بكلمة.

تكلم فالح بصوتٍ هادئٍ امتزج فيه التردّد بالعزم:

- سأروي لكم حكايتي مع السجن... من البداية. رفع نظره إليهم، يتأمل وجوههم واحدًا تلو الآخر، وكأن عينيه تبحثان عن شجاعةٍ أخيرة تمنحه القدرة على البوح. في تلك اللحظة شعر أن روحه تهمس له بأن الوقت قد حان؛ حان ليكسر جدار الصمت الذي أحاط نفسه به لسنواتٍ طويلة، جدارٍ بناه ليس خوفًا، بل رحمةً بمن أحب.

كانت الحقيقة ثقيلة، ظلّ يحملها في صدره عقودًا، يخشى أن تغيّر صورته في أعينهم، هو الذي عرفوه دائمًا أبًا ثابتًا كالجبل، لا تهزّه الرياح ولا تنال منه العواصف. لكنه أدرك أخيرًا أن بعض الصمت يصبح عبئًا، وأن الحكايات المؤجلة لا بد أن تجد يومًا طريقها إلى النور، مهما طال انتظارها.

قالها بهدوءٍ يشبه إلقاء حجرٍ صغير في ماءٍ راكد:
- الآن... سوف أتكلّم.

وفجأة ساد الصمت، صمتٌ كثيف حتى بدا الهواء وكأنه توقّف عن الحركة، وكأن الجدران نفسها تنصت لما سيقال، تبادل الأبناء النظرات في حيرةٍ صامتة، بينما اتسعت أعين البنات بدهشةٍ امتزجت بشيءٍ من الخوف، فقد شعر الجميع أن لحظةً مختلفة توشك أن تغيّر ما اعتادوه طويلًا.

أخذ فالح نفسًا عميقًا، ثم تابع حديثه، كان صوته متماسكًا، ثابتًا كما عرفوه دائمًا، لكن نبرته حملت حزنًا قديمًا تسلّل بين الكلمات دون أن يستطيع إخفاءه، قال ببطءٍ كمن ينتزع الذكريات من أعماقٍ موجعة:

- لم أكن مجرمًا كما قيل، ولا مخالفًا كما شاع... كنت فقط ضحية موقفٍ قاسٍ، وخُذلت من بعض الناس.

توقّف لحظة، وكأن الكلمات أثقل من أن تُقال دفعةً واحدة، ثم أردف بصوتٍ أكثر خفوتًا:

- التزمت الصمتُّ... لأنني اخترت كرامتي على التبرير، واخترت أن أُعاقِب نفسي بالصمت على ذنبٍ لم أرتكبه.

وفي تلك اللحظة، لم يكن الصمت الذي ملأ المكان فراغًا، بل كان امتلاءً بالمشاعر؛ دهشة، ووجع، وأسئلةٌ

كثيرة بدأت تتشكل في عيونهم قبل أن تجد طريقها إلى الكلمات.

بدأ يسرد حكايته ببطء، قطعةً تلو الأخرى، كمن يخلع عن روحه أثقالًا تراكمت عبر السنين، طبقةً بعد طبقة، كانت الكلمات تخرج منه مترددة في البداية، ثم ما لبثت أن انسابَت كاعترافٍ طال احتباسه. تحدّث عن الظلم الذي كُتب عليه أن يحمله، وعن الليالي الحارّة خلف القضبان، حين كان الليل أطول من الصبر، والسكون أثقل من القيود.

روى كيف كانت الساعات تمرّ بطيئة، وكيف كان الإنسان هناك يواجه نفسه قبل أن يواجه العالم، وكيف تعلّم أن الألم قد يصقل الروح بدل أن يكسرها، ثم انتقل إلى ما بعد الخروج... إلى الحرية التي لم تكن حريةً كاملة، حين ظلت نظرات الناس تلاحقه في الطرقات، نظراتٍ تحمل حكمًا جاهزًا لا يعرف الحقيقة، كانوا يرَونه بعين ماضيه، بينما كان هو يشعر أنه خرج أنقى روحًا، وأكثر صفاءً من كثيرين لم تطأ أقدامهم السجن يومًا.

2
"سـرقـة الحـريـة"

في الليلة الأخيرة من رمضان، كنت أرتّب فوضى نومي كما أفعل في كل عام؛ طقسٌ صغير أمارسه بصمت، كأنني أهيّئ نفسي لعبورٍ معنوي من زمنٍ إلى زمن، أقاوم إغراء النهار بالنوم، وأُسرع إلى فراشي بعد العشاء، محاولًا أن أختطف قسطًا من الراحة استعدادًا لصباح العيد. لم يكن الأمر لأنني أحب العيد فحسب، بل لأنني كنت أتشبث به كذريعةٍ للفرح، ولو كان فرحًا عابرًا لا يدوم طويلًا.

كان في داخلي شيء غامض لا أستطيع تفسيره... توقٌ خفيّ لشيءٍ لا أعرف اسمه، شعورٌ يتسلل بهدوءٍ إلى أعماقي كلما اقترب العيد. ربما هو حنينٌ لطفولةٍ كان العيد فيها وعدًا صافيًا بالبهجة، حيث كانت الضحكات صادقة، والقلوب أخفّ من أن تحمل همومًا، وربما كان محاولةً صامتة للهروب من ذلك الثقل الذي صار يرافقني في السنوات الأخيرة، ثقلٍ لا يُرى، لكنه يسكن الروح ويجعل الفرح يبدو كضيفٍ عابرٍ نخشى رحيله قبل أن نعتاد حضوره.

ولتفادي النوم بعد صلاة الفجر، اتفقت مع بعض الأصدقاء أن نخرج مباشرة بعد صلاة الفجر.

قررنا زيارة أحد أصدقائنا القدامى، ووجدنا أنفسنا مجتمعين أمام المسجد كما اتفقنا مسبقًا، لكن حين اتصلت بصديقنا الذي كنّا ننوي زيارته، اعتذر بصوت متردد. بدا عليه الحذر وكأن هناك شيئًا يثقل قلبه، شعورٌ لم نجرؤ على السؤال عنه كثيرًا، بابتسامةٍ صامتة، غيرنا وجهتنا إلى صديق آخر يسكن في حيّ قديم لا يبعد كثيرًا عن منازلنا.

ذاك الحيّ... كأن الزمن قد توقف عنده. الشوارع تتلوى وتلتفّ على نفسها كأنها تخفي أسرارها عن المارة، تتسع قليلًا ثم تضيق فجأة، تختنقك برائحة الطين اليابس والحنين إلى أيامٍ مضت، البيوت صامتة، والجدران تهمس بأسرار لم يجرؤ أحد على سردها، وكأن كل زاوية تحكي حكاية منسية بين الغبار والظل.

لم نكن نعلم حينها أن تلك الأزقة الملتوية كانت تخبّئ لنا مفاجأة، مصيرًا لم نتوقعه، سيغيّر مجرى يومنا، ويترك فينا أثرًا أطول من مجرد زيارة عابرة.

كنت أقود السيارة ونحن نضحك على أشياء تافهة، نرمي النكات واحدة تلو الأخرى، كأننا نحاول تأجيل مواجهة شيء مجهول، شعور غامض يثقل الأجواء من دون أن ندركه. ضحكاتنا كانت محاولة لإخفاء شيءٍ أعمق، لحظة من اللاوعي نأمل فيها أن يبقى كل شيء طبيعيًّا.

وفجـأة، عنـد نهايـة أحـد الشـوارع الضـيقة، ظهـرت أمامنـا سـيارة شرطـة، كحـاجز مفـاجئ يقطـع كـل شيء، أغلقت الطريق تمامًا، وكأنها وقفت لتراقبنا منذ لحظة ما لـم ننتبـه لهـا. توقفـت السـيارة، تراجعـت قلـيلًا لأفسـح المجـال، لكـنهم أشـاروا لي بإشـارة التوقـف، تعليمـات صارمة وواضحة، شعرت حينها بأن الهواء أصبح أثقل، والضحكات البريئـة اختفـت، وحـلّ مكانهـا صـمت يملـؤه الترقب والريبة.

نزلـت مـن السـيارة مطمئنًـا، مؤمنًـا بـأن لا شيء يـدعو للقلق؛ كل أوراقي سليمة، وكل الطرق مشرّعة أمامي، لكن نظـرة الشرطي كانت مختلفـة، كأن عينيـه تلـتقط شـيئًا لا أراه، كأنها تبحث عن شيءٍ أعمق من مجرد مخالفة، طلب مـني الرخصـة والاسـتمارة، سـلمته إياهـا، لكنـه لـم يلتفـت لها، لم يقـرأ شيئًا، مرّ فقط بعينيه عليها بسرعة، ثم قال بصوت جامد:

–أنت مخالف للنظام؟

أجبتــه بهــدوء، محــاولًا أن أســتوعب مــا يحــدث:
–أي نظام تقصد؟

حينها التقت أعيننا، ورأيت الحقيقة بلا شك؛ لم يكن العسكري يبحث عن مخالفة، بل كان يبحث عن ضحية، عـن شـخص يمكنـه إخضـاعه وإهانتـه. فجـأة، جـاءت الصـفعة... صـاعقة في قوتهـا، لا تـترك أثـرًا عـلى الوجـه

فحســب، بــل عــلى الكرامــة بأكملهــا. قيــدني بــالقيود الحديدية، وأخذت الصدمة تتسرب إلى كل جسدي.

نظــرت إلى أصــدقائي، ووجــدت في عيــونهم صــدمة مماثلة وهم يُقيَّدون معي بلا ذنب، بلا سؤال، بلا تفسير. تــمَّ اقتيادُنــا كأننــا لصــوص، وكأننــا مجرمــون في قصــة لــم نكتب صفحاتها. والشمس كانت شاهدة صامتة على كل شيء.

3

"اليوم الأول في السجن"

دخلنا السجن، خطواتنا تتأرجح بين الذهول والإنكار، كما لو أن الأرض نفسها حاولت رفض هذا الواقع، لم نستطع تصديق أن الأبواب قد أُغلِقت خلفنا بإحكام، وأن كل شيء أصبح وراءنا؛ الحرية، الوقت، والسماء التي اعتدنا أن نراها كل صباح، لم يُعطَ لنا حتى فرصة لإبلاغ أهلنا، الذين كانوا في تلك اللحظات نائمين، يحلمون بعيدًا عنا، وهم لا يدركون أن جزءًا منهم قد سُرق فجأة.

بدأ كل شيء عند مكتب الاستعلامات، حيث صودرت متعلقاتنا، المحافظ والساعات، كأنهم يأخذون آخر خيط يربطنا بالعالم الخارجي، آخر علامة على أننا كنا هنا، أحياء. خضعنا لتفتيش دقيق، كل حركة مراقبة، كل نظرة مسلوبة منا. حاولنا التماسك، ليس لأجلنا فقط، بل لنحمي بعضنا البعض من الانهيار، كنا نعرف أن مجرد التقاء العيون بيننا يعني الانهيار؛ دموع ستنساب بلا توقف، صمتٌ يتسرب إلى أعماقنا، وخوفٌ مشترك يتقاسمنا جميعًا بصمت.

في ذلك المكان، أدركت معنى أن تكون محاصرًا بلا خيار، أن تُسلب كل ما يعطيك إحساسًا بالأمان، وأن

تصبح مجرد رقم آخر في آلة لا تعرف الرحمة. كل شيء من حولنا كان جديدًا ومرعبًا: الصمت، الجدران، الضوء الباهت، والروائح التي تحمل صدى مئات القصص الأخرى التي سبقتنا... وكانت تلك اللحظة بداية رحلة لم أكن أعرف أنها ستترك بصمتها في كل تفاصيل حياتي.

صاح أحد العساكر بصوته الأجش، كالرعد داخل أروقة السجن الباردة:

–تحرك... يا سجين.

ترددنا لوهلة، لم نكن ندرك أن هذا اللقب، الذي لم نسمع به من قبل، صار يُطلق علينا الآن، كنا نعيش حياتنا بين أهالينا وأصدقائنا بلا خوف، والآن أصبحنا مجرد رقم، مجرد كلمة تُنطق لتحدد مصيرنا.

كرر العسكري صوته هذه المرة بلا تردد، فجسّد السلطة المطلقة، فلم نتمالك أنفسنا، تقدّمنا بصمتٍ مثقل، خطواتنا ترتجف بين الخوف والذهول، نجتاز أبوابًا فولاذية ضخمة لا تُفتح إلا بيد من يملك السلطة، أبواب توحي بقسوة ما وراءها، أبواب تختبر عزيمتنا قبل أن ندخل.

وأخيرًا وصلنا إلى 'العنبر الأول'، ذلك المكان الذي ستبدأ فيه حياتنا الجديدة، حياة تحت مراقبة دائمة، حياة كل حركة فيها محسوبة، كل كلمة مراقبة، كل نفس مأخوذ بعين الاعتبار. شعور غريب امتلكنا جميعًا، مزيج

من الخوف، والانكسار، والفضول المرير عمَّا ينتظرنا وراء جدران العنبر.

الممر كان طويلًا، تتقابل أعيننا مع أبواب الغرف الثقيلة المصطفة على جانبيه، أبواب تبدو وكأنها حراس صامتون لكل ما يخفيه العنبر من أسرار. في نهايته، تظهر دورات المياه، كرمزٍ بائس للحدود الضيقة التي ستصبح كل حياتنا داخل هذه الجدران.

في تلك اللحظة، التحق بنا سجين يبدو مطمئنًا أكثر منّا، قدّم نفسه لنا بابتسامة خفيفة وكأنها تعويض عن القسوة المحيطة: 'أنا سليمان... رئيس العنبر'. صوته هادئ لكنه يحمل وزن السلطة التي اكتسبها هنا، عبر سنواتٍ من الحياة داخل الزنزانة، سجل أسماءنا واحدًا تلو الآخر بدقة، ثم سألنا عن منطقتنا، وكأن معرفة الأصل مهمة بنفس قدر معرفة الاسم، قلنا له بهدوء: 'من العاصمة'.

أومأ برأسه وكأن ذلك يكفي، ثم أشار إلى غرفة رقم (2)، المكان الذي سيكون مسكننا المؤقت، أول مساحة صغيرة نمتلكها بين جدران العنبر، مساحة ستشهد صمتنا، مخاوفنا، وربما بعض اللحظات القليلة من الأمل التي قد تظل مسلوبة من الحرية.

دخلنا الغرفة، وكان في استقبالنا شاب مبتسم يُدعى 'أبو عبود'، مسؤول الغرفة، كان مختلفًا عن كل ما رأيناه

منذ دخولنا السجن؛ هدوؤه أعطى المكان شيئًا من الاطمئنان، وحزمه في الوقت نفسه أكسبه احترامًا مِن كل مَن حوله. بدا فيه من الكرم ما خفف علينا صدمة اللحظة الأولى، كأنه يقول بصمت: لن تكونوا وحدكم هنا.

تهللت أساريره عند معرفته بأن أصدقائي من نفس الحي الذي يسكنه، فبدأ يتحدث عن المدارس، الأزقة، الذكريات المشتركة... عن أيام مضت حيث كانت الحياة أبسط، والضحكات أكثر صفاءً. لم يكن الحديث مجرد كلمات، بل كان جسرًا صغيرًا أعادنا للحياة خارج هذه الجدران، ولو للحظة، شعورٌ غريب بالنقاء وسط عالمٍ صار يفرض عليه قيوده الصارمة.

الغرفة كانت واسعة نسبيًا، تحتوي على أسِرّة بطابقَين، ومكيف صحراوي متحرك يكافح عبثًا مواجهة الحرّ والرطوبة، كما لو كان صرخة صغيرة من الراحة في عالمٍ خانق. ما إن هممنا بالجلوس لالتقاط أنفاسنا، حتى اقترب شابان يشاركان أبو عبود الغرفة، ناظرَين إلينا بفضول حاد:

– ما هي تهمتكم؟

أجبنا بصوت خافت، محاولين أن يبدو هادئًا قدر الإمكان: 'مخالفة نظام'.

نظر كل منهما إلى الآخر باستهزاء خفي، كأنهم يراقبوننا كحيوانات صغيرة. **في هذا العالم، تُقاس قيمة السجين**

بحجم جريمته؛ كلما عظمت، زاد النفوذ، ارتفعت الهيبة، وصارت الكلمة التي تقولها أو الحركة التي تقوم بها تحت مراقبتهم تحمل وزنًا أكبر.

وبدافع الفضول أو ربما تجاهلنا لمخاطر الفضول، سألناهم عن جرائمهم، تمنينا لو لم نفعل. أحدهما قاتل، والآخر متورط في الخطف والسرقة. تجمد الدم في عروقنا، وانقبضت القلوب بلا رحمة، كنا نظن أننا في مكان خاطئ... لكن الحقيقة المؤلمة؟ كنا في قلب الجحيم، حيث تُقاس الحرية بقسوة الماضي، والوجود بحجم الرعب الذي يحيط بك من كل زاوية.

بعد جلسة الأسئلة، خلد الجميع للنوم، إلا نحن، جلسنا نحاول أن نملأ الفراغ بأي شيء، كل واحد منا أمسك مجلة قديمة، نحاول أن نبدو مشغولين، كأننا نتظاهر بأن الوقت يمر، لكن القلق كان يضغط علينا بلا هوادة... لم يكن في بالنا سوى مشهد أهلنا، ينتظروننا على مائدة الإفطار، ربما يجهلون ما حل بنا، وربما لم يكن لديهم أدنى فكرة عن اليوم الطويل الذي نمر به الآن.

اقترب وقت الظهر، وبدأت الحركة في الممر، عيون ترمقنا من تحت الجفون الثقيلة، بعضها فضولية، وبعضها حذِرة، تحاول أن تقرأ فينا أكثر مما نرغب أن يظهر. ومع ذلك، كانت هيبة 'أبو عبود' كافية لجعل الجميع يمر دون كلمة، كأن احترامه يحميه ويحمينا من أن نكون هدفًا لأي نظرة مزعجة.

لـم أسـتطع الجلـوس أكـثر، فغفـوت جالسًـا مـن شـدة التعب. الجو خانق، والمكيف الصحراوي المتحرك يكافح عبثًـا مـع الحـر والرطوبـة، لا يفلـح إلا في نشرـ نسـيم دافئ يـذكرنا بالنهـار المحمـوم خـارج الجـدران. المـاء يُمـلأ كـل ساعة للمكيف، لكن مع الصيام، كنا نتصبب عرقًا كما لو كنا نحترق من الداخل، ورغم كل ذلك، ظلّ شعور القلق عـلى أهلنـا يطاردنـا، يثقـل القلـب ويزيـد مـن صعوبة كل لحظة.

دخلت دورة المياه بعـد انتظـار مرير، كل دقيقـة تمـر كأنهـا سـاعة. الرائحـة كانت كريهـة حـد الغثيان، والأبـواب كانـت بـلا أقفـال، فـلا مكان للخصوصـية، ولا ملجـأ مـن النظـرات المتخيلـة أو الخـوف الـداخلي. توضـأت بسرـعة، عسىـ أن تبرد قطرات الماء شدة الحرّ والقهر الذي يثقل الصدر، ولو للحظة قصيرة، شعورٌ غريب بالارتباط بشيءٍ من العادي، شيء نعرفه خارج هذه الجدران.

في الممـر، صلينا صلاة الظهـر عـلى عجـل، نحـاول أن نحـافظ عـلى حـد أدنى مـن كرامتنـا، بينمـا كل شيء حولنـا يذكّرنا بعجزنا. الإمام كان شابًا بلحية كثّة، هادئًا بطريقة أثارت احترامي على الفور، ظننته موظفًا من إدارة السجن، لكن المفاجأة كانت أنه كان سجينًا معنا، يعيش معنا نفس القيود، نفس الحرّ، ونفس الرهبة من هذا المكان. لحظة صغيرة من الإدراك، أن حتى من يقودك في الصلاة، يمكن

أن يكـون أسـيرًا مثلك، أعـادت للـروح شـيئًا مـن التعـاطف والإنسانية في قلب هذا الجحيم الصامت.

رجعنا نحن الثلاثة إلى الغرفة، لنجد أن هناك وجوهًا جديـدة لـم تكـن موجـودة عنـد دخولنـا. كـانوا يجلسـون بهدوء، يراقبوننا بعيون تجمع بين الفضول والحذر، وكأن كل حركـة نقـوم بهـا ستُسـجَّل في ذاكـرة العنـبر. ثـم تقـدّم أحـدهم، صـوتُه حـاد قلـيلًا، وبـدأ يسـألنا بصـياغة تشـبه الطقس:

– من أنتم؟ وما هي قضيتكم؟

كـان الأمـر أشـبه بطقـس تعريـف، أو وسـيلة لإثبـات الذات، اختبار صغير لمعرفة من نحن، وماذا جلبنا معنا من قصص وأعباء. أجبنا باختصار، لكن الكلمات شعرت بثقـل أكـبر مـن المعتـاد، كأنهـا تُـوزَّع في الهـواء ثـم تُقـاس عليهـا. الغالبيـة، بـالطبع، يـدّعون المظلوميـة، يحكـون حكاياتهم بطريقة تجعل كل موقف يبدو وكأنه ظلم كبير ارتُكب ضده، وربما كان بعضهم صادقًا... والله أعلم.

جلست أراقب، وأحاول استيعاب لعبة القوة الخفية في العنبر؛ كلٌّ يحـاول أن يحـمي نفسـه، أو يثبت مكانـه، أو يفـرض احترامـه، وكلُّ كلمـة، وكل نظـرة، تصبح جـزءًا مـن نظـام غـير مكتـوب يحـدد مـن هـو الأعـلى، ومـن هـو الأضعف. ووسـط كل هـذا، شـعرت بغربـة مريـرة... وكأننـا

دخلنا عالمًا آخر، عالمًا يفرض قواعده على كل نفَس نتنفسه.

حاولت النوم قبيل العصر، لكن لم أستطع. الجو خانق، والضجيج لا ينقطع، والفرش المتسخة تذكرك دومًا بأنك محاصر بلا ملاذ، والقلق على أهلي يثقل قلبي كما لو حملت العالم كله على صدري. كل هذه الأشياء اجتمعت لتبعد النوم عن عينيّ، وكأن السجن نفسه يرفض أن أجد لحظة راحة.

صليت العصر سريعًا، محاولًا أن أجد شيئًا من السلام في الصلاة، لكن السؤال بدأ يتكرر بلا رحمة:

– ما هي قضيتكم؟

كل من رآنا كان يسألنا، وكأن التهمة أصبحت بطاقة هوية جديدة لا يمكن إنكارها أو إخفاؤها، جزءًا من كل ما يحدد من نحن في هذا العالم الصغير.

صرنا نكرر الإجابة، 'مخالفة نظام'، حتى مللنا أنفسنا، حتى شعرت أن الكلمات فقدت معناها، وأن الإجابة نفسها أصبحت جزءًا من القيود التي تُكبّلنا أكثر من الحديد والقيود الحقيقية.

اقترب وقت الإفطار، وكان كل شيء حولنا لا يبشر بالفرج، كأن العالم كله توقف عن الرحمة. جلست أستعيد صورًا من الماضي، حتى لمحت وجه صديق بين المارة، في

تلك اللحظة التي كنا مقيدين فيها في سيارة الشرطة. كنت أظن، بكل بساطة، أنه سيبلغ أهلي، سيقف لحظتها كحارس على ما أملك من روابط بالعالم الخارجي، لكنه... لم يفعل.

ظل السؤال يطرق قلبي بإصرار: لماذا لم يتحرك؟ لم أجد إجابة، وكأن كل شيء حولي أصبح صامتًا، وكل وجه يمر بجانبي أصبح غريبًا. شعرت بوحدة ثقيلة، أكثر من قيود الحديد، أكثر من جدران السجن، كأنني وحيد مع ظلي، محاصر بين خيبة الأمل ومرارة الانتظار.

صاح المنادي بالإفطار، وكأن صوته يفتش عن شيء من الإنسانية وسط هذا المكان الحار. وُزِّعت وجبة تكاد تشبه العزاء أكثر من كونها طعامًا: تمر جاف، خبز صلب، شربة ثقيلة لا تروي إلا الشعور بالجوع، وسمبوسة بلا طعم ولا روح. أكلنا ما يُبقي الروح على قيدها، كل لقمة كانت محاولة لملء الفراغ، للتمسك بشيءٍ من الحياة رغم القيود والضيق.

بعد المغرب، اجتمع السجناء حول تلفزيون قديم أبيض وأسود، نافذة ضيقة على العالم الخارجي. صوت القناة المحلية مشوَّش، لكننا تعلقنا به كما لو كان طوق نجاة؛ لحظة قصيرة نعيش فيها واقعًا بعيدًا عن جدران الحديد. بدأ الدخان يتسلل إلى المكان، رغم منع التدخين، إلا أنه حاضر، يملأ المكان ويذكرك بالحرية المفقودة،

بشيء من الحياة الطبيعية التي كانت خارج الأسوار، شيء تعرفه ولا تحن إليه.

وفي زحمة الأفكار، والقلق الذي كان يضغط على صدورنا بلا رحمة، سُمِع صوت مكبرات الصوت ينادي على أسمائنا. انتفضنا فجأة، كقلوبنا التي كادت تنفجر من الترقب... هل هذا هو الفرج؟ هل ستتغير الأمور أخيرًا؟

لكن سرعان ما انكشف السر: كانت ملابس ... أرسلها أهلنا. لحظة صغيرة، لكنها حملت كل شيء؛ فرحة، حنين، وطمأنينة. عرفوا أخيرًا، بعد ساعات من الصمت والانتظار، بعد الخوف والقلق، عرفوا ما حل بنا، شعور دافئ اجتاحنا، كنسمة من الحرية وسط القيود، كذكرى للحياة خارج هذه الجدران الحارة.

لحظة جعلت الصبر يبدو أخف، والروح ترتاح قليلًا، ولو للحظة.

وقد علمت لاحقًا كم عانوا في البحث عنا... كم كان يومًا طويلًا عليهم، القلق يلتهم قلوبهم، يتنقلون بين مستشفيات بلا روح، وثلاجات الموتى. كل دقيقة كانت تمر عليهم كعقود، وكل لحظة انتظار كانت تحمل خوفًا يفوق الوصف. لقد تحمّلوا ما لم أستطع تصوره، صبروا، وبحثوا، ولم يتركوا زاوية من المدينة إلا وسألوا فيها عنّا... كل هذا الحب والصبر، رغم العناء.

عـدنا إلى الغرفـة محمّلـين بالخيبـة، ومـع كـل خطـوة كانت الحقيقة تتسلل أكثر إلى وعيّنا:

البقـاء هنـا لـن يكـون لسـاعات معـدودة... بـل لأيـام طويلة، قد تشعر بأنها بلا نهاية. اقترب منا 'أبو عبود'، صوته يحمل شيئًا من المزاح الذي يحاول تهدئتنا، وقال:

– ترى عيد السجن غير عن عيدكم... راح تنبسطون، اعتبروها طلعة بر!

كلماته كانت مزحة على السطح، لكنها ضربتنا بصفعة واقعية، بواقع لا مهرب منه، صمت يثقل المكان أكثر من الحديد والقيود. حاولت أن أستوعب ذلك، أن أستسلم لهـدوء، لكـن القلـب كـان يـرفض. مـن حولنـا، انشـغل السـجناء بـورق اللعـب، أو تجهـيز حاجيـاتهم البسـيطة للعيـد، كمـا لـو أن الحيـاة تسـتمر رغـم كل شيء، وكأنهم تعلمـوا كيـف يجـدون فسـحة مـن الفـرح وسـط القيـود والظلام. كل ذلك جعلني أشعر بصراع داخلي؛ بين الرغبة في التمسـك بالأمـل، والـوعي بمـرارة المكان الـذي أصبح علينا أن نعيش فيه.

جلست على سريري، مرهقًا من كل شيء... من حرارة العنبر، من القلق الذي لم يترك قلبي، ومن التفكير الذي استنزفني بـلا هـوادة. حاولـت أن أسـتجمع نفسي، لكـن جسدي كان يسبق عقلي في التعب، فغفوت في نومٍ ثقيل، عميـق، كـأن كـل مـا مـررت بـه خـلال اليـوم تكـدس في

جسـدي، حـتى صرت أشـبه بشيء منسي. عـلى سريرٍ صغير بين جدران السجن.

لم يوقظني من هذا النوم سوى صوت الأذان... لصلاة الفجر. ارتجف قلبي مع وقع الكلمات، شعور غريب امتزج بين الصفاء والرهبة؛ لقد كانت لحظة يقظة روحية، رغم القيـود، رغـم الظـلام، رغـم كـل مـا يحـيط بي مـن حـزن وخــوف. الأذان أعــاد شــيئًا مــن الانضــباط والطمأنينــة، جعلني أستشعر أن الحياة، رغم كل شيء، لا تزال حاضرة، وأن الـنفس لا تُقهر بسـهولة، حـتى وسـط جـدران السـجن الحارة.

4

"العيد في السجن"

بدأ ضوء الفجر يتسلل ببطء عبر النوافذ العالية، ضوء شاحب لا يشبه شمس العيد التي اعتدناها في الخارج. في كل عام، كان هذا الوقت يمتلئ بالحركة والفرح؛ أصوات الاستعداد، رائحة القهوة، وضحكات الأطفال وهم يرتدون ملابسهم الجديدة. أما هنا، فكان الصباح مختلفًا... صامتًا، ثقيلًا، كأن العيد تردد قبل أن يدخل هذه الجدران.

تخيلت تكبيرات العيد من مسجدنا، عبر مكبرات صوت قديمة، لكنها اخترقت القلوب بقوة. توقفت للحظة، وأغمضت عينيَّ، فاندفعت الذكريات دفعة واحدة؛ وجه أمي وهي توقظنا، ازدحام الأحضان بعد الصلاة... كل ذلك مرّ أمامي كحلم سريع، ثم تلاشى حين فتحت عينيَّ على سقف الغرفة الباهت.

بدأ بعض السجناء يرتدي ملابس العيد التي وصلت إليهم من أهلهم، بعضهم حاول أن يبتسم، وبعضهم أخفى وجهه حتى لا تُرى دموعه. **كانت المفارقة موجعة؛ ملابس جديدة فوق قلوب مثقلة، وفرح نحاول تمثيله**

أكثر مما نشعر به. تبادل البعض التهاني بصوت خافت، وكأنهم يخشَون أن يوقظوا الحنين النائم داخلهم.

أما أنا، فشعرت أن العيد هذه المرة لم يكن يومًا للفرح، بل اختبارًا للصبر. أدركت أن الحرية ليست مجرد خروج من باب، بل شعورٌ بسيط بأن تكون بين أهلك حين يكبر العيد في قلوبهم. هناك فقط فهمت معنى الغياب... ومعنى أن يكون الإنسان حاضرًا بجسده، غائبًا بروحه.

مع أول نداءٍ للفجر، تسلّل الصوت عبر ممرات السجن الحار كخيطٍ رفيع من الضوء يشقّ العتمة الثقيلة. لم يكن النداء مجرّد إعلان لبداية يوم جديد، بل إشارة غير مكتوبة بأن ساعة الانضباط قد حانت، وأن على الجميع أن ينهض قبل أن توقظهم القسوة. تحرّكت الأسِرَّة تباعًا، ونهض معظم السجناء بسرعةٍ اعتادوها مع الأيام، وجوههم متعبة، وأجسادهم تستجيب بدافع الخوف أكثر من الرغبة.

كان العنبر يضجّ بأصوات خافتة؛ احتكاك الأقدام بالأرض، همسات متقطعة، وأنفاس متثاقلة تحمل بقايا ليلٍ طويل لم يعرف فيه أحد طعم الراحة. وحده صديقي نايف بقي ممددًا فوق فراشه، لا يتحرك. لم يكن نائمًا، كنت أرى عينيه المفتوحتين تحدّقان في السقف الباهت، كأنه يبحث فيه عن مخرجٍ لا وجود له. كان جديدًا على هذا المكان، وما تزال الصدمة تسكنه؛ صدمة الانتقال

المفاجئ من حياةٍ عادية إلى عالمٍ تحكمه الأوامر والعقوبات.

اقتربت منه هامسًا أحثّه على النهوض، لكنه لم يُجِب، بدا وكأن ثقلًا خفيًا يشدّه إلى الفراش، همٌّ أكبر من قدرته على الاحتمال، وكأن كل ما في داخله قد انكسر دفعة واحدة، لم ألحّ كثيرًا، فقد كنت أعلم أن بعض الآلام لا تُعالج بالكلمات.

وفجأة، دوّى صوت الباب الحديدي وهو يُفتح بعنف، فارتجف المكان كله. دخل العسكري بخطوات سريعة، صوته يسبق حضوره وهيبته تملأ الفراغ. كانت عيناه تمسحان الوجوه واحدًا واحدًا، تبحثان عن مخالفة، عن خطأ صغير يتحول إلى درسٍ قاسٍ للجميع، ساد صمتٌ ثقيل، حتى الأنفاس أصبحت حذرة.

توقفت نظراته عند نايف، في تلك اللحظة شعرت بأن الزمن تباطأ، تقدّم نحوه بغضبٍ ظاهر، وما إن رآه ممددًا حتى انفجر صوته بالأوامر، لم يمهله فرصة للتبرير؛ أمسكه بقسوة وسحبه من فراشه، فتعثرت خطوات نايف وهو يحاول استيعاب ما يحدث، كان المشهد قاسيًا، والرهبة تشلّ الجميع، فلا أحد يجرؤ على التدخل.

بدأ العسكري بجرّه نحو الخارج وهو يلوّح بالعقوبة المعتادة: الجلد أو التعليق... كلمتان كانتا كفيلتين بأن تجعلا القلوب ترتجف. رأيت الخوف في عيني نايف،

خوف إنسان لم يفهم بعد قوانين هذا العالم، ولم يدرك أن التأخر هنا قد يتحول إلى ألمٍ لا يُنسى.

في تلك اللحظة الحرجة، تقدّم سليمان، رئيس العنبر، بخطوات محسوبة، كان رجلًا خبيرًا بالسجن وقوانينه، يعرف متى يتكلم؟ وكيف يختار كلماته؟ خاطب العسكري بصوتٍ ثابت، لا يخلو من الاحترام، موضحًا أن نايف سجين جديد، وأنه لم يتعلم بعد نظام الاستيقاظ والانضباط، وتعهد أمامه بأن يتحمل المسؤولية وأن يلتزم نايف من الآن فصاعدًا.

ساد صمتٌ متوتر، حتى إننا كنا نسمع دقات قلوبنا. نظر العسكري إلى سليمان طويلًا، وكأنّه يزن كلماته بين القبول والرفض، مرت لحظات بدت دهرًا كاملًا، قبل أن يطلق زفرة قصيرة، ويدفع نايف مبتعدًا عنه، ثم خرج دون كلمة أخرى.

في تلك اللحظة فقط عاد الهواء إلى صدورنا. جلس نايف على فراشه مذهولًا، وجهه شاحب ويداه ترتجفان، بينما تبادلنا نظرات صامتة تحمل معنى النجاة، لم يكن ما حدث أمرًا عابرًا؛ فقد أدركنا جميعًا كم كان قريبًا من ألمٍ قاسٍ كان سيترك أثره طويلًا في جسده وروحه.

حينها ظننت أن الأمر انتهى، وأنها مجرد حادثة عابرة في صباحٍ ثقيل... لكن الأيام علّمتني أن ما نجا منه نايف ذلك اليوم، لم أنجُ منه أنا لاحقًا. وعندما جاء دوري،

فهمت تمامًا لماذا كان الخوف يسكن عيون السجناء مع كل نداءٍ للفجر، ولماذا كان الاستيقاظ هنا ليس بداية يوم... بل نجاة مؤقتة من وجعٍ مؤجل.

بعد الصلاة، عاد العنبر إلى هدوئه الثقيل، ذلك الهدوء الذي لا يشبه السكينة بقدر ما يشبه الاستسلام. انقسم السجناء كعادتهم؛ بعضهم تمدد فوق أسرّته سريعًا وكأن النوم مهربٌ مؤقت من الواقع، بينما بقي آخرون جالسين، عيونهم معلّقة في الفراغ، تفكيرهم لا يغادر العيد القادم. كان العيد هنا فكرة مختلفة تمامًا؛ لا فرح مترقب، ولا أصوات ضحك، ولا موائد عامرة... بل انتظار طويل لصوتٍ واحد فقط.

في السجن، تختصر فرحة العيد في جملة تُقال عبر مكبر الصوت:

(فلان... لك زائر).

حينها يتغيّر كل شيء، تنهض الروح قبل الجسد، وتتسارع الخطوات، وتلمع العيون كأنها عادت للحياة. دقائق قليلة خلف الزجاج أو عبر حاجزٍ بارد، لكنها بالنسبة للسجين عمرٌ كامل يُختصر في لحظات؛ لذلك كانوا ينتظرونها كما ينتظر الغريق خشبة النجاة.

أما أنا، فلم أستطع النوم، جلست فوق سريري أراقب الضوء الخافت المتسلل من النافذة العالية، أحاول أن أرتّب أفكاري فلا تستجيب. كان داخلي مزدحمًا بالأسئلة

والحنين والقلق. إلى جواري جلس حسام، شاب صغير السن، ملامحه لا تزال تحتفظ ببراءة لم يستطع السجن محوها، كنت أعلم أنه من عائلة معروفة، وأن سقوطه إلى هنا لم يكن متوقعًا حتى لمن يعرفونه.

ظل صامتًا قليلًا، ثم بدأ يتحدث بصوت منخفض، كمن يخشى أن يسمعه ماضيه، قال إن حياته لم تبدأ هكذا... تحدث عن أمٍّ كانت توقظه بابتسامة، وعن بيتٍ واسع مليء بالدفء، وعن مستقبلٍ كان يبدو واضح المعالم. لكن الطريق تغيّر حين دخل أصدقاء جدد إلى حياته؛ ضحكاتهم كانت سهلة، ووعودهم مغرية، وخطواتهم الأولى بدت صغيرة لا تستحق الخوف.

قال وهو يحدّق في الأرض:

(ما حسّيت أني أضيع... إلا بعد ما ضِعت فعلًا).

حكى كيف تحولت السهرات إلى تجاوزات، والتجاوزات إلى جرائم، حتى وجد نفسه يسير في طريقٍ مظلم دون أن ينتبه لنهايته. سرقة تبعتها أخرى، ثم تورّط أكبر مما تخيّل... إلى أن أُغلقت الأبواب خلفه هنا. صمت قليلًا، وابتلع كلماته بصعوبة، ثم قال:

(أمي... ما توقعت يوم تشوف اسمي في ملف قضية) .

كانت كلماته أثقل من المكان نفسه. **شعرت أن السجن لم يكن مجرد جدران وأسوار، بل حكايات**

مكسورة تمشي على قدمين. حولنا رجالٌ لكل واحدٍ منهم قصة بدأت بخطأٍ صغير، ثم كبرت حتى ابتلعت حياتهم.

نظر إليّ حسام بعينين متعبتين وقال:

(تعرف وش أصعب شيء؟ ليس السجن... أصعب شيء إنك تعرف إنك كسرت قلب

أمك).

سكت بعدها، وكأن الكلام استنزف ما تبقى فيه. ظللنا جالسين دون حديث، نراقب السجناء وهم بين نومٍ قلِق وانتظارٍ صامت. في تلك اللحظة أدركت أن العيد خارج هذه الجدران يعني الفرح... أما هنا، فهو موسم للمراجعة والندم، حيث يعود كل واحدٍ إلى نفسه، ويواجه الحقيقة التي حاول طويلًا الهروب منها.

في وقت صلاة العيد، اصطفّ السجناء في الممر الطويل، وجوهٌ متعبة لكنها تحاول أن تتشبث بشيءٍ من البهجة. تقدّم الإمام، يحمل كتابًا أصفر باهت الأطراف، أوراقه مثنية من كثرة ما قُلِّبت بين الأيدي، بدأ الخطبة بصوتٍ هادئ، يتحدث عن الصبر والابتلاء، وعن رحمة الله التي لا تُغلق أبوابها مهما ضاقت الطرق. كان بعضهم ينصت بعمق، وآخرون يطأطئون رؤوسهم، وكأن الكلمات تصيب أماكن موجعة داخلهم.

بعد الصلاة، لم يعد المكان كما كان قبلها، فجأة تغيّر المزاج العام، واتجه أغلب السجناء إلى غرفة رقم (4)، التي تحولت إلى ساحة عيدٍ خاصة بهم. ارتفعت الأصوات، غناءٌ غير منظم، وضحكات متقطعة، وقدور الطعام تحولت إلى طبول يُضرب عليها بإيقاع سامري بدائي، كانت الفوضى تعمّ المكان، لكنها فوضى تحمل محاولة صادقة لسرقة لحظة فرح من قلب الحرمان.

بعضهم يرقص، وبعضهم يصفق، وآخرون يراقبون المشهد بابتسامة حزينة، كأنهم يشاركون بأرواحهم فقط.

وقفت عند الباب لحظات أراقبهم، ثم انسحبت بهدوء إلى غرفتنا؛ لم أستطع المشاركة؛ جسدي كان منهكًا، لكن التعب الحقيقي كان في داخلي؛ ترقّب طويل، وأسئلة لا تجد إجابة، وشعور ثقيل بأن الزمن هنا لا يمشي... بل يتراكم فوق الصدر.

تمدّدت على السرير دون أن أشعر، وغلبني النوم كمن يسقط فجأة في بئرٍ عميقة. لم أدرِ كم مضى من الوقت، حتى أيقظتني أصوات الحركة في الممر؛ خطوات متلاحقة، ضحكات، ونداءات متفرقة. نهضت ببطء، واتجهت نحو التلفاز الصغير في طرف الغرفة.

كان أصدقائي جالسين أمامه، يحدّقون في شاشة باهتة تعرض برامج العيد، أطفال بملابس جديدة يغنون، ومذيعون يبتسمون بلا توقف، وأصوات تردد:

(من العايدين... ومن الفايزين).

للحظة قصيرة، خدعني المشهد، شعرت وكأنني خارج هذه الجدران، وكأن العيد عاد كما أعرفه؛ رائحة القهوة، صوت الأقارب، ضحكات الصغار وهم يركضون بين البيوت. كدت أبتسم... لكن الحقيقة عادت سريعًا، ثقيلة وقاسية.

نظرت حولي؛ الجدران نفسها، الأسرّة الحديدية، الوجوه المتعبة، والباب الذي لا يُفتح إلا بإذن. انطفأت تلك اللحظة سريعًا، كوميضٍ عابر.

تساءلت في داخلي:

كيف يمكن للإنسان أن يشعر بالعيد... وهو محروم من أبسط معانيه؟

أدركت حينها أن العيد ليس يومًا في التقويم، بل شعورٌ يولد بين أهلك، في بيتك، حين تكون حرًّا... لا حين تشاهده من خلف الأسوار.

بعد الظهر، تبدّل وجه السجن مرة أخرى؛ بدأ وقت الزيارة، اللحظة التي ينتظرها الجميع كما يُنتظر المطر في موسم الجفاف. ارتدى السجناء أجمل ما لديهم؛ ثياب احتفظوا بها لهذه اللحظة فقط، ملابس مكوية على قدر ما تسمح به الظروف، وعطور خفيفة تُخفي شيئًا من

رائحـة المكـان الثقيلـة. وقفـوا صـفًّا تحـت السـماعات المعلقة في الممر، أعينهم معلّقة بها كأنها نافذة الأمل.

كـان الصـمت يسـبق كل نـداء، ثـم ينطلـق الصـوت فجأة:

(السجين فلان... زيارة).

في تلك اللحظـة، يتغير كل شيء. يلمع وجـه المنـادى عليه، تتسارع خطواتـه، يركض نحو البـاب، كأن المسافة بينه وبين أهله عمرٌ كامل يريد اختصاره. بعضهم يبتسم، وبعضـهم يمسـح دموعًـا حـاول إخفاءها، وآخـرون يوصـون رفاقهم قبل الخروج:

(ادعوا لي).

أما الذين لم تُنطق أسماؤهم، فكانت وجوههم تبهت تـدريجيًا، يحـاولون التظـاهر باللامبـالاة، يجلسـون أو ينشـغلون بشيءٍ ما، لكن أعينهم تـبقى معلّقـة بالسـماعة، تنتظر نداءً قد يأتي... أو لا يأتي.

مـرّت الأسـماء واحـدًا تلـو الآخـر، كل نـداء كـان يـوقظ الأمـل في داخلنـا، ثـم يطفئـه حـين لا يتبعـه اسـمنا. ومـع ذلك، لم أشعر بالحزن كما توقعت. على العكس، تسلل إلى قلـبي شـعور خـفي بالراحـة. قلـت في نفسي: ربمـا عـدم حضورهم يعني أنهم لم يعرفوا كل التفاصيل بعد... وربما يكون هذا الصمت مقدمة لفرج قريب.

كنـا لا نريـد لأهلنـا أن يرَونـا خلـف هـذه القضـبان، بملابس السـجناء ووجـوهٍ أنهكها القلـق، كان يكفينا أنهـم علموا أننا أحياء.

اقترب منا أحد السجناء، رجل بسيط الملامح، طيب النظرة، جلس بجوارنا وقال بهدوء:

(أعطـوني رقـم أهلكـم... بـأوصي أمي تتصـل علـيهم وتطمنهم).

نظرنـا إليـه بدهشـة وامتنـان، في مكـانٍ يُفـترض أن القسوة تسكنه، ظهرت إنسانية صافية بلا مقابل. كتب الرقم بعناية، وكأنه يحمل أمانة ثقيلة، ثم قال مطمئنًا:

(لا تشـيلون هـم... أمي قلبها أبـيض، بس تقـول لهـم: عيالكم بخير).

في تلك اللحظة شعرت بشيءٍ ينكسر داخلي... ليس حزنًـا، بـل امتنانًـا عميقًـا. أدركـت أن الله، حـتى في أقسى الأماكن، يرسل أشخاصًا غرباء ليكونوا رحمةً مؤقتة، حين يعجز الأقربون عن الوصول.

مـع حلـول المسـاء، جـاءت أولى البشـائر، نـودي عـلى أسماء أصدقائي... سيغادرون.

تدفقت في داخلي مشاعر متناقضة؛ فرحت لهم بقدر مـا تألمـت لفـراقهم. ودّعـتهم عنـد البـاب، كانـت عينـاي تمتلئـان بالـدموع، لكنـني تماسكـت نفسي. ولـم أجـرؤ عـلى

إسقاطها أمامهم. اكتفيت بابتسامةٍ متعبة تخفي خلفها موجًا من الحزن، بينما قلبي كان ممتنًا لهم... فقد عاشوا معي كل لحظة، وتحملوا معي كل ألم، وشاركوا الخوف والرجاء وكأننا جسدٌ واحد.

عندما أُغلق الباب خلفهم، شعرت بثقل الصمت يهبط على المكان؛ بقيت وحدي.

جلست أمام التلفزيون، لا لأشاهده، بل لأُشغل الفراغ الذي بدأ يتمدد داخلي. كنت أحاول أن أسحب الزمن من عنق الحزن، أن أقتله بالدقائق والساعات، لكن الوقت كان يمشي ببطءٍ قاسٍ.

كانت المشاعر تتأرجح كأرجوحةٍ لا تستقر؛ أحدهم يضحك بلا سبب، وكأنه يهرب من خوفه، وآخر يئنُّ بصوتٍ خافت، يحمل وجعًا لا يستطيع البوح به. أما أنا، فكنت في المنتصف... لا أضحك، ولا أبكي، فقط أراقب الحياة وهي تمر ببطء، وأنتظر بصبرٍ أن تأتي بشائر اسمي كما جاءت لغيري.

لكن هدوء السجن لم يدُم طويلًا؛ فجأة، انشقّ الصمت عن صراخٍ حاد، تبعته أصوات ارتطامٍ عنيفة كأن الجدران نفسها دخلت في شجار. نهضنا مذعورين، وتبادلنا النظرات قبل أن نندفع نحو باب الغرفة نسترق السمع. في الممر، كانت الفوضى قد اشتعلت؛ معركة قاسية اندلعت بين رئيس العنبر سليمان وبعض سجناء

الغرفـة الثالثـة. الأجسـاد تتـدافع، والشـتائم تتطـاير، وأصوات الضرب ترتجّ مع كل حركة.

لـم تكـن مشـاجرة عـابرة... كانـت انفجـارًا مكبوتًـا لاحتقانٍ طويل، كأن الغضب الذي خبّأه الجميع خلف ابتسامات العيد وجد طريقه أخيرًا للخروج. رأيت الدم يسيل على الأرض الإسمنتية، أحمرَ صارخًا وسط اللون الرمادي الباهت، بينما حاول بعض السجناء التراجع خوفًا من أن تمتد إليهم العاصفة.

لـم تمـضِ دقـائق حـتى اقـتحم العسـكر المكـان، خطـواتهم ثقيلـة، وأوامـرهم أعـلى مـن الصـراخ نفسـه. سيطروا على الموقف بعنفٍ لا يقبل النقاش، ووقفوا إلى جانب سليمان، ثم أمسكوا بثلاثة من السجناء وقيّدوهم بقسـوة. كانـت نظـراتهم خليطًـا مـن الغضـب والانكسـار، وهـم يُسـحبون في الممـر الطويـل نحـو مصـيرٍ يعرفـه الجميع... الجلد والتعليق.

ساد صمت ثقيل بعد رحيلهم، صمت أشد قسوة من الضجيج الذي سبقه، عاد كل سجين إلى مكانه، وكأن شيئًا لم يحدث، لكن العيون كانت تفضح الحقيقة؛ الخوف عاد سيد المكان، والفرح المؤقت الذي حاولوا صنعه قبل ساعات تلاشى تمامًا.

هكذا انتهى عيد السجن... بدأ بأصوات نشازٍ تحاول تقليـد الفـرح، وانـتهى بصـراخٍ ممـزق، ودمٍ عـلى الأرض،

ومزيدٍ من الأبواب التي أُغلقت بإحكام، ليس فقط خلف الأجساد، بل داخل القلوب أيضًا.

تمدّدت أخيرًا على سريري الحديدي، لم تكن هناك وسادة تريح رأسي، ولا نوم حقيقي يزور عينيَّ، أغمضتهما فقط، متشبثًا برجاءٍ صغير... أن يحمل الغد شيئًا مختلفًا، ولو قليلًا، وأن يكون الفجر القادم أرحم من كل ما مضى.

5
"انتكاسة الصمت"

لم يشرق هذا الصباح على قلبي كما أشرقت شمسه على الجدران الباهتة. تسللت خيوط الضوء عبر النوافذ العالية، فلامست الجدار الإسمنتي الحار، لكنها لم تصل إليّ. منذ أن أُفرج عن أصدقائي، شعرت أن السجن قد ضاق فجأة، كأن المساحة نفسها انكمشت، وكأن الهواء صار أثقل مما يحتمل الصدر، والحائط أكثر حرارة مما اعتدت.

لم أكن أدرك أن وجودهم كان الدرع الخفي الذي احتميت به طوال الأيام الماضية؛ كانوا يخففون وطأة المكان دون أن أشعر؛ يسرقون من القلق حدّته، ومن الخوف صوته العالي. بوجودهم، كان السجن يبدو احتمالًا يمكن تحمّله، عالمًا غريبًا نعم... لكنه أقل قسوة. أما الآن، فقد صرت أواجهه وحدي؛ العيون التي تراقب، الأسئلة التي لا تنتهي، والليل الطويل الذي يرفض أن ينام.

حين خرجوا، شعرت للحظة أنني خرجت معهم... أن الخطوات التي ابتعدت في الممر تحمل جزءًا مني. بقي جسدي فقط هنا، أما روحي فكانت تمشي خلفهم، تتعلق بآخر نظرة، بآخر كلمة، بآخر وعدٍ بأن اللقاء قريب. عندها

أدركت أن الوحدة داخل السجن ليست غياب الناس فقط، بل غياب من يعرفك كما أنت.

انطفأت في داخلي شمعة صغيرة كنت أقاوم بها ظلمة المكان، لم أتخيل يومًا أنني سأحتاج إلى وجوه مألوفة بهذا الشكل، إلى أصوات أعرف نبراتها، إلى أسماء أنطقها دون حذر، وإلى أحاديث عفوية لا يختبئ خلفها شك أو ريبة. هنا، كل كلمة تُوزن، وكل نظرة تُفسَّر، وكل صمت قد يُساء فهمه.

جلست على سريري أحدّق في الفراغ، أراقب حركة السجناء حولي وكأنني غريب بينهم، رغم أننا نتشارك الجدران نفسها. لأول مرة شعرت أن الزمن لا يمر... بل يجلس بجانبي، ثقيلًا، صامتًا، يذكّرني بأن أصعب ما في السجن ليس القضبان، بل اللحظة التي تجد نفسك فيها وحيدًا تمامًا، بلا شاهد على ضعفك، ولا يد تمتد لتقول: أنا هنا.

في ذلك اليوم، اتخذت قراري بصمتٍ تام: لن أتكلم؛ لم تعد لديّ رغبة في الحديث، ولا طاقة لشرح ما لا يمكن شرحه، ولا شهية لفتح أبواب الكلام مع غرباء يمرّون في حياتي كما تمرّ الظلال. اخترت الصمت، رغم علمي أن الصمت في السجن ليس حيادًا؛ فقد يُفهم ضعفًا، أو تعاليًا، أو نيةً خفية، لكنني لم أعد أملك رفاهية التفسير، كنت أريد أن أختبئ... حتى من صوتي أنا.

أصبحت أراقب من حولي دون مشاركة، أجلس بينهم كأنني حـاضرٌ بجسـدي فقـط. الكلمـات تـدور في المكان، الضحكات ترتفع أحيانًا، والمشاحنات الصغيرة تندلع ثم تخمـد، وأنـا أكـتفي بـالنظر، شـعرت أن الكلام يسـتهلك مـا تبقّى من قـوتي، وأن الصمت وحده قـادر على حمايتي من الانهيار.

الـروتين داخـل الزنزانـة كان قـاتلًا، أشـبه بعقوبة خفية لا تُكتب في الأحكام، كل شيء يُعاد بلا نهاية، كأننا نعيش اليوم نفسه مرارًا. النوم يتناوب مع السهر، والفراغ يتمدد بـين السـاعات كصحراء بـلا ظـل، ننتقـل مـن صـلاة إلى أخـرى، ومـن انتظـار إلى انتظـار، ومـن صـمتٍ ثقيـل إلى صمتٍ أثقل منه، حتى يفقد الزمن معناه.

في زاويـة الممـر، كـان التلفـاز الأبـيض والأسـود معلّقًـا كعينٍ مفتوحـة عـلى عـالمٍ لا ينتمي إلينـا. يعـرض الأخبـار، والـبرامج، وضـحكات النـاس في الخـارج، ونحـن نتابعهـا كغرباء يقفون خلف زجاجٍ سميك، نـرى الحياة تتحـرك، لكنها لا ترانا، كأننا ننظر من نافذة بيتٍ لم يعد لنا.

مـرّ اليـوم بـبطءٍ موجـع، وكلمـا ظهـر وجـه مـألوف أو سُـمعت نغمـة قديمـة، عـاد بي الشـوق دفعـة واحـدة إلى البيت... إلى أمي. اشتقت لرائحتها التي كانت تملأ الصباح دفئًـا، ليـدها حـين تمـرّ فـوق رأسي دون سـبب، لنظرتهـا الهادئـة وهي تُعـدّ الفطـور قبـل أن نسـتيقظ، اشـتقت لصوتها حين تدعو لي بعد كل صلاة، تهمس بالدعاء وهي

تظن أنني لا أسمع... لكنني كنت أسمع دائمًا، وأعيش على تلك الكلمات أكثر مما عشت على الطعام نفسه.

هناك، على سريرٍ لا يعرف الحنان، أدركت أن أقسى ما في السجن ليس المكان، بل البعد عمّن كانوا يمنحونك معنى الطمأنينة دون أن تشعر. وفي تلك اللحظة، تمنيت لو أسمع صوت أمي لمرة واحدة فقط... لا لتطمئن عليّ، بل لأطمئن عليها.

اليوم كان يوم زيارة النساء... اليوم الذي انتظرته بلهفة وقلق متشابك، يوم يثير فيّ شعورًا مزدوجًا من الشوق والخوف. منذ أن أصبح الأمر رسميًا، وأنا أعد الساعات والدقائق، أكرر في ذهني صورها، صوتها، ابتسامتها، وكيف كانت تتلمس راحتي في صغري. كنت أرغب في رؤيتها بشدة، لكني في الوقت نفسه كنت أريد الاختباء، كأن وجهي المسجون، المرتبك، المنهك من الأيام الماضية، لا يستحق أن يُرى بعد.

جلست قبل الزيارة مباشرة، أراقب زملائي يتجهون نحو الباب، قلوبهم تخفق، وأقدامهم ترتعش من الفرحة المتوقعة. شعرت بوزن العالم على كتفي، وبأن كل خطوة نحو الباب قد تفضح ضعفي، كيف ستنظر إليّ وهي تراني وراء القضبان؟ أنا الذي كنت أملها وسندها بعد أبي، ها أنا الآن أمامها... سجين، ليس لأنني ارتكبت خطيئة، بل لأن الظروف دفعتني إلى هنا، وأحسست بأن كل شيء خارج عن إرادتي.

خفت أن أكون خيبة أمل لها، خفت أن أرى دموعها وأنا عاجز عن مسحها، خفت أن تقول لإخوتي عني ما لم أرغب أن يسمعوه، خفت من الصمت الذي يفرضه السجن بيننا، ومن نظراتها التي ستفضح قلبي الممزق، كنت أتصور كيف ستتمالك نفسها، هل ستبكي بصمت خلف ابتسامة مصطنعة، أم ستضع يدها على كتفي وتهمس: «كلها أيام وتعدّي يا ولدي»؟ كنت أعلم أن حتى لو قالتها، الحزن في عينيها سيظل محفورًا في داخلي، ولن أسامح نفسي أبدًا على شعورها بالألم من أجلي.

اللحظة التي وصلتها، لم أكن أعرف هل أستطيع النظر إليها مباشرة، أم أن أحبس نفسي. خلف حاجزٍ من الصمت. كل شيء بدا أبطأ من المعتاد؛ صوت خطواتها، همسها، حتى صوت تنفسها بدا أعلى. كنت أشعر بشدٍّ داخلي، قلبي يطرق صدري بعنف، وكأن كل جزء مني يتمنى أن يهرب من هذا المكان. لم أستطع تقديم تهنئة العيد، ولم أستطع أن أقبل رأسها كما اعتدت، ولم أتمكن من مشاركة أي ضحكة صباحية معها. كل شيء كان صعبًا للغاية، لأن العيد هنا لا يحمل إلا الغربة... وها أنا الغريب في داخلي، غريب عن نفسي، عن مكاني، عن مصيري، وعنها.

حين نادى المنادي أسماء بعض السجناء، رأيتهم يركضون نحو الباب بفرحٍ طفوليّ، قلوبهم تحلّق خارج هذا المكان، ينسون كلّ الألم والترقب، وكأن تلك

اللحظات هي الحياة نفسها. بعضهم عاد وقد تغيّر وجهه، عيناه قد تشبّعتا بالبكاء الصامت، والبعض الآخر عاد مبتسمًا، كأنه جاء من العيد الحقيقي، لا من زيارة سريعة خلف القضبان. أما أنا، فلم يُنادَ اسمي، لم أحصل على لحظة اللقاء، ولا لحظة الوداع، وربما كان ذلك أهون على قلبي من أن أراها وأعلم أني عاجز عن إسعادها هنا.

لكن رغم كل شيء، بقي صوتها حاضرًا في رأسي، كهمسة من قلبٍ يعرفني كما أنا:

(الله يرجعك لي سالمًا، يا قطعة من قلبي) .

تلك الكلمات لم تكن مجرد دعاء، بل شريان حياة صغيرًا يربطني بها، يذكرني بأن قلبي وقلبها لا يزالان متحدين، حتى لو كان جسدي محاصرًا هنا وحده. شعرت بدموع لم تسقط بعد، بحرقة لم تخرج، بأمل خافت يشتعل داخلي بين لحظات اليأس، وبقوة خفية تمنحني صبرًا على انتظار الغد... على انتظار الفرصة التي سأرى فيها عينيها دون حواجز، وأسمع صوتها بلا أي وسيلة فصل، وأشعر بأن قلبي ما زال في مكانه الصحيح، مع المكان الذي ينتمي إليه.

كل ثانية مرت وأنا أسمع ذلك الصوت، كانت تمرّ كسنة كاملة، وكل لحظة غيابها كانت تثقل روحي، لكنها في الوقت نفسه تمنحني عزيمة، لأبقى صامتًا، لأحتفظ بما تبقى من كبرياء، لأصبر على هذه الغربة التي تفرضها

الحياة، ولأتمنى أن أظل قطعة من قلبها، حتى لو كنت بعيدًا عنها.

6

"الانتظار واللقاء"

مرت لحظات ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كأنها سنوات ضائعة في يومٍ واحد، في اليوم الثالث من وجودي هنا. عقلي لم يهدأ لحظة واحدة، أسئلتي تراكمت كما لو أن الزمن يتلاعب بي: من سيزورني؟ هل سيبقى أهلي في الخارج يتأملونني فقط، عاجزين عن الاقتراب؟ هل سيستطيعون تحمل رؤيتي هنا، بين القضبان والجدران البائسة؟ وهل سيفهمون لماذا أنا هنا؟ وهل ستمر أيام العيد دون أن ألتقي بأمي؟ أسئلة كانت تضغط على صدري بثقلٍ لا يطاق، كل سؤال يضيف طبقة من القلق، كل سؤالٍ يهدد صبري المحدود.

مع اقتراب الساعة، تسارعت دقات قلبي، وكأن كل دقيقة تمرّ تضاعف من حدة التوتر داخلي. بعد صلاة الظهر، بدأ السجناء الآخرون يرتدون ملابسهم الجديدة، يحاولون أن يظهروا بأفضل صورة رغم كل شيء، وأنا بينهم، جسدي موجود لكن عقلي غائب، أعيش لحظة صمت داخلي حاد، كأن العالم كله توقف لحظة قبل أن يصرخ من جديد. تمنيت لو بقي الوقت على حاله، وأن

يبقى هذا الجمود المريح، حتى لا أواجه الحقيقة مرة أخرى: أني محاصر هنا، وأن اللقاء المنتظر قد لا يأتي أبدًا.

الجميع متوتر، يرمقون بعضهم البعض بقلق ممزوج بالأمل، ينتظرون لحظة النداء التي قد تأتي في أي لحظة، لحظة تبدّد الصمت، أو تفرضه أكثر. أما أنا، فكنت أردد في نفسي- بصوت خافت، كأنه وسيلة لتثبيت عقلي بين الواقع والخيال:

"لن يزورني أحد... هذا المكان لا يستحق الزيارة".

وكل كلمة كانت كحجر ثقيل يسقط على قلبي، يذكرني بوحدتي، وبأن السجن ليس مجرد جدران، بل هو صمت طويل، انتظار قاسٍ، وشوق يلتهم الروح.

وبينما كانت الأسماء تتردد عبر مكبر الصوت، وكل نداء يمرّ، كان قلبي يعلو، يضغط صدري، ويجعل الوقت يبدو أبطأ من المعتاد. كلما نودي باسم آخر، شعرت بارتعاشٍ داخلي، وكأن الزمن يتوقف لحظة قبل أن يمرّ. ثم جاء نداء اسمي... شعرت حينها بقفزة عنيفة في قلبي، كأنني خرجت من السجن للحظة، كأن كل الجدران البائسة ذابت، وكل القيود اختفت، وترك لي العالم مساحة لأتنفس الحرية ولو لثوانٍ معدودة.

تقدمت في طابور الزيارة مع السجناء، وكل خطوة كانت تثقل بالأمل، وكل ثانية كانت تمر وكأنها عمر كامل. كل حركة تقربني من ذلك الصوت، من تلك الوجوه التي

أحببتها، والتي لم أرها منذ زمن طويل. المسافة بيننا كانت طويلة، حواجز صلبة تفصل بيننا، لكنها لم تمنع دفء المشاعر من العبور. الصوت الذي ناداني من بعيد كان شعاعًا من الأمل، يضيء الظلام الذي تراكم في أيامي الأخيرة.

مع كل خطوة، شعرت أن قلبي يفيض بالحنين، كل ثانية كانت تكشف لي مقدار الاشتياق الذي تراكم داخلي. وعندما وصلت أخيرًا إلى المكان، لم أستطع حبس دموعي، حاولت أن أبدو قويًا، أن أُظهر لهم أنني بخير، لكن لم يكن بالإمكان مقاومة قوة الموقف. كانت العيون تلتقي، والأيدي تمتد، والقلوب تتواصل دون الحاجة للكلمات، كل شيء يقول: "لقد عدت، نحن معك".

حين شاهدت وجوههم، شعرت بأن كل شيء هنا، كل صمت السجن، كل الانتظار، كل الخوف، قد تحول إلى فرح لا يوصف، إلى دفء يذيب الجدران البائسة، ويعيد الحياة إلى ما بدا أنها نسيتني. كانت لحظة اللقاء أقوى من أي تصنُّع أو قوة حاولت أن أظهرها... لحظة صافية، صادقة، فيها كل الحب والحنين والطمأنينة التي تمنيتها لأيام طويلة.

لم أستطع إخفاء ألمي، كانت محاولتي أن أقول "أنا بخير" مجرد وهم، فالدموع كانت تسبق كل كلمة وتفضح قلبي قبل لساني. في عيونهم، رأيت مزيجًا من الحزن والفرح، نظرات تنتظر مني شيئًا، كلمة، لمسة، أي شيء

يخفف عنهم ثقل ما يشعرون به، كانوا يبحثون عن بصيص أمل فيما أصابني، عن دليل أنني ما زلت على قيد الحياة بلا كسر كامل.

بدأنا الحديث ببطء، ثم تسارعت الكلمات. تكلمنا عن الكثير... عن الحياة داخل السجن، عن تفاصيل قصتي، عن لحظات الاعتقال التي شعرت خلالها أن العالم كله قد اختُزل في جدران وحواجز من حديد. شرحت لهم كيف تحولت حياتي فجأة إلى هذا الواقع، كيف أن الأيام العادية، والضحكات، والوجوه المألوفة أصبحت مجرد ذكريات بعيدة، كأنها تنتمي لعالم آخر لم أعد جزءًا منه.

استمعوا لي باهتمام، بعيون تتبع كل كلمة، وكأنهم يحاولون التقاط كل شعور أفرغته من داخلي. حين أخبرتهم عن إضرابي عن الكلام، نصحوني برفق بأن أفتح نافذة التواصل مع الآخرين، أن أستشعر لحظات الواقع مهما كانت قاسية، وألا أترك صمتي يتحكم بي أكثر من السجن نفسه.

ثم جاء السؤال الذي لم أستطع كتمه... سألت عن أمي، لماذا لم تحضر في يوم زيارة النساء؟ كان السؤال يسكن قلبي، كالسهم الذي لا يترك فرصة للراحة. أجابوني أن أمي حضرت في زيارة النساء، لكنها لم تتمكن من الوصول في الوقت المناسب، وأنها ستأتي غدًا.

لحظة سماع ذلك شعرت وكأن ثقلًا كبيرًا انزاح عن جسدي، ولو للحظة، لكن قلبي لم يزل يشتاق إليها. كان هناك فرح خافت في صدري، شعور بأن اللقاء قريب، وأن الدفء الذي أفتقده منذ زمن ليس بعيدًا كما شعرت، لكن الشوق ظل يصرخ بداخلي... يذكرني أن الحب والحنين لا يُطفئهما الزمان، ولا يحدهما السجن ولا المسافة.

انتهت الزيارة، وكان وداعهم ثقيلًا على قلبي، ثقل لا يوزنه أي حجر، لكن لم يكن وداعًا عاديًا، بل لحظة امتزجت فيها مشاعر الفرح بالحزن، امتزج فيها الشوق الطويل بالحب الصامت الذي لا يُقاس بالكلمات. حين تكلم بعضهم ليقولوا لي كلمة، لم أستطع الرد عليه كما يجب، بل اكتفيت برمش العينين محاولًا كتم الدموع، لكن كل دمعة كانت تتسرب من قلبي قبل عينيَّ، تحمل معها كل طول الانتظار، كل ألم الأيام، وكل شوق لم يُروَ منذ دخوله للسجن.

كانت تلك الوجوه الطيبة، التي لم تعرف المسافة، والتي لم يثنِها تعب الطريق أو عناء الإجراءات، هي الأمل. كل ابتسامة كانت كنبضٍ صغير ينقل الحياة إلى داخلي، كل لمسة يد، كل كلمة حانية، كل نظرة تحمل دعاء صامت، جعلت قلبي يشعر بأنه ليس وحيدًا، وأن الألم الذي عشته لم يكن عبثًا. شعرت فجأة أن جزءًا من روحي الذي تآكل خلف الجدران قد عاد إليّ، أن الدفء الذي

فقدته منذ دخول السجن البائس لم يمُت بالكامل، بل ظل حيًّا في قلوبهم.

أثناء عودتي إلى العنبر، مشيت بين السجناء وكأن خطواتي تحملني بين عالمين: عالم السجن الذي صرت أعرفه جيدًا، وعالم النور الذي دخل إلى قلبي لتوِّه، عالم يضم وجوه أحببتها، وقلوبًا شعرت أنها لا تنسى. كان شيء في داخلي مختلفًا، شعور أكبر من مجرد الراحة أو الفرح العابِر... شعور بالأمان العاطفي، شعور بأن هناك من يشعرون بما أمرُّ به، ويحملون معي ثقل الأيام الطويلة.

لم يعد مهمًّا أن أكون خلف القضبان، أن أكون محاصرًا بين جدران هذا السجن البائس، فالحرية الحقيقية كانت هنا، في تلك اللحظة، في تلك الوجوه، في كل كلمة صادقة، في كل ابتسامة شديدة البساطة لكنها غنية بالحب والحنين. شعرت أنني لم أعد مجرد رقم، لم أعد مجرد جسد محاصر في زنزانة، بل كنت جزءًا من عالمهم، من حبهم، من حضورهم، وأن قلبي لم يعُد وحيدًا.

العودة إلى العنبر كانت مليئة بالتفكير، أتذكر كل كلمة، كل لمسة، كل لحظة نظر فيها إليّ أحد أحبائي، وكان قلبي يردد في صمت: "أنا لست وحدي... لست مجرد سجين، بل إنسان محاط بالحب".

أدركت في تلك اللحظة أن قوة هذه الزيارة لم تكن في الوقت الذي قضيناه معًا، بل في الشعور الذي زرعوه بداخلي، شعور بأن الحياة لم تنساني بعد، وأن الأمل لم يمُت، وأن في قلبهم دائمًا ضوءًا يضيء لي الطريق مهما كانت الجدران مظلمة.

كانت دموعي حينها مختلفة... لم تكن دموع حزن فقط، بل دموع امتنان، دموع شعور بالحب الحقيقي الذي لا يحدُّه مكان، ولا يضعه الزمن بين قضبان. أدركت أن هذا الشعور سيبقى معي، يحميني، يخفف عني وطأة السجن، ويعيد لي الثقة بأن الغد ربما يحمل الفرح الذي طالما انتظرته.

جلست على السرير، جسدي منهك وثقيل من ساعات الانتظار والتوتر، وقلبي يثقل بأفكاري التي تجمعت داخلي كعاصفة لا تهدأ. "ماذا سيحدث الآن؟"، تكررت هذه الكلمات في عقلي بلا توقف، تلتها التساؤلات الأخرى: كيف سأواجه الأيام القادمة؟ هل سأظل هنا طويلًا؟ هل سينتهي هذا الشعور بالخِذلان والضياع يومًا؟ كل سؤال كان يجر خلفه دوامة من المخاوف والقلق، لكن، ولأول مرة منذ زمن طويل، شعرت بأن الحياة لم تتوقف عند هذه اللحظة. كان هناك شيء صغير يئنّ بداخلي، شيء بدأ يتحرك ببطء، وكأنه يقول لي: "ما زلت حيًّا... وما زال هناك ما يستحق الصمود من أجله".

أنا سجينٌ هنا، بين جدران بائسة وقضبان صلبة، لكن لم أعد أسيرًا للظلام الداخلي الذي كان يلتف حولي منذ الأيام الأولى. كنت أخاف الصمت، أخاف أن يأكل قلبي من الداخل، أن يتحول كل شعور إلى فراغ قاتل، لكن بعد زيارة الزوار، بعد تلك الكلمات الصادقة والابتسامات التي حملت لي دفء العالم كله، بدأت أفهم شيئًا جديدًا: **الصمت ليس الحل دائمًا، لكنه قد يصبح نافذة إذا عرفت متى وكيف تُفتح.** كل كلمة قيلت لي كانت شعاعًا صغيرًا، خطوة على طريق طويل نحو الحرية الداخلية، نحو التحرر من القيود التي فرضتها الأيام القاسية على روحي.

ظل الظلم يلاحقني في أفكاري، يجرني إلى دوامة من التساؤلات التي لا تنتهي: من وضعنا هنا؟ من قرر أن نصبح مجرد أرقام بين جدران؟ كيف ينام مرتاحًا أولئك الذين أودعونا السجن؟ كيف يضحكون مع أولادهم بينما أنا أبحث عن العدالة، أبحث عن معنى للأيام التي سرقت مني حريتي، عن لحظة واحدة يشعر فيها قلبي بالراحة؟ كل تفكير في ذلك كان كالسَّهم، يحرقني من الداخل، يزيد شعور الغربة والخذلان ويجعل الظلم يلتصق بي أكثر. ومع كل ذلك، شعرت بوميض صغير... شعور هادئ، لكنه ثابت، كأن هناك جزءًا مني لا يريد الاستسلام، يريد أن يقاوم، أن يجد بصيص الأمل مهما كان ضعيفًا.

بقيت كلمات الزوار تتردد في رأسي، تتسرب إلى قلبي شيئًا فشيئًا، كوقود جديد يضخ الحياة في شراييني. شعرت بقوة خفية تتسلل إلى داخلي، تدفعني لمواجهة نفسي، لمواجهة الخوف والفراغ والخذلان، لتفحص الحواجز التي شيدتها حول قلبي منذ البداية. كنت أعلم أن الطريق طويل، وأن الألم لن يزول بسهولة، لكن لحظة التواصل هذه أعادت لي شيئًا غريبًا... شعورًا بأنني لم أعد وحيدًا تمامًا.

في صمت العنبر، جلست أنظر إلى السقف، وأسمع دقات قلبي تتسارع بين الأمل والخوف. كانت هناك رغبة قوية في الاقتراب من أحد السجناء، من شخص يمكن أن أرى انعكاس تجربتي فيه، شخص يمكن أن أستمع له وأتشارك معه شعور الانعزال والخوف، شعور اليأس والانتظار الطويل.

أردت أن أعرف كيف عاش، كيف صبر، كيف قاوم، كيف وجد طريقة ليجعل أيام السجن قابلة للتحمل. أردت أن أرى في عينيه ما يثبت لي أن الألم ليس نهاية الطريق، وأن الصبر والكلمة الطيبة، ولو لمرة واحدة، قد يفتحان نافذة صغيرة على الأمل وسط هذا الظلام.

جلست أطيل النظر في الظلال حولي، أسمع أصوات خطوات الآخرين في الممر، وأتخيل كل قصة وراء كل وجه، كل قلب يخفق في الصمت.

شعرت حينها أن هناك شيء أكبر من الألم، شعور بالحياة يتسلل تدريجيًا، شعور بأن الروح قد تستعيد قوَّتها حتى وسط القسوة، وأن الإنسان لا ينهار تمامًا ما دام في قلبه من يذكِّره بأنه ليس وحده، وأن هناك من يحبه، من يتذكره، من يرسل له ضوءًا خافتًا عبر الكلمات، النظرات، أو الابتسامة الصامتة.

كانت دموعي تأتي أحيانًا دون سابق إنذار، دموع امتزج فيها الحزن بالشوق، بالأمل، وحتى بالقوة المكتشفة حديثًا. كانت كل دمعة تقول: "لقد تألمت، لقد خسرت، لكنك لم تُمحَ بعد.

هناك من سيقف معك، هناك من يذكِّرك بأن الحياة لم تنتهِ بعد، وأن الأمل لا يموت داخل قلبٍ يرفض الاستسلام"، شعرت أن هذه اللحظة، هذه الرغبة في الاقتراب من الآخر، كلها تشكل بداية جديدة، بداية أتمسك بها رغم القيود والجدران، بداية تجعلني أتنفس بحرية داخل قلبي، حتى لو لم تتحرر قدماي بعد من هذا السجن.

7
"تبادل الكلام مع السجناء"

الكلام مع السجناء لم يكن مجرد تبادل كلمات عابرة، بل كان ملاذًا، كان شريان حياة يمد قلبي بالهواء وسط هذا السجن الذي يلتهم كل شيء حي بداخلي.

كل كلمة أخرجها كانت كأنها حجر ثقيل أسقطته من صدري، كل حديث كان يخفف شيئًا من الضغط الذي تكدس في داخلي منذ اللحظة الأولى لدخولي هذا المكان. لم نكن نتحدث من أجل التسلية، بل من أجل البقاء على قيد الحياة... البقاء على قيد الإنسانية وسط عالم يحاول سحقها. الصمت هنا قاتل، يأكلك من الداخل، يجعل كل زاوية من الزنزانة تضيق أكثر، يجعل الوقت ثقيلًا، كالصخر الذي يضغط على صدرك بلا هوادة، ويتركك تتساءل: متى سينتهي هذا العقاب؟

الكلمات، ولو كانت مع شخص غريب لا يعرفك ولا يعرف تاريخك، كانت كالماء الذي يروي عطش الروح، دفء غريب يملأ الصدر، شعور بأنك ما زلت حيًا، وأنك ما زلت قادرًا على التواصل، على أن تُرى، على أن تُسمع. كل قصة يرويها الآخرون كانت انعكاسًا لألمنا جميعًا، لكل كلمة صدى داخلي يذكرني بأنني لست وحدي، وأن الألم

الذي أعيشه مشترك، وأن الصبر والمشاركة بالكلمة يمكن أن يكونا درعًا يحمي من اليأس.

عالم السجن قاسٍ جدًّا على من يدخل لأول مرة... كل شيء جديد يرهقك: الأصوات، الروائح، نظرات السجناء، صمت الجدران، وكل الإجراءات التي تشعرك أنك مجرد رقم بلا قيمة. كل التفاصيل الصغيرة، من حركة أيديهم أثناء الطعام، إلى نبرة صوتهم عند السؤال عنك، كانت تترك أثرًا عميقًا في نفسي. ومع مرور الأيام، يتحول هذا الواقع المرّ إلى روتين، ليس لأنك اعتدت عليه، بل لأنك مضطر للعيش فيه، لأن لا مهرب من هذا المكان.

الأيام هنا تتشابه، تنسخ نفسها بلا رحمة، كأن الزمن نفسه توقف عن الدوران. النوم، الاستيقاظ، الصلاة، الطعام، التفتيش، الصمت، الانتظار، الزيارات النادرة... كل شيء يتكرر، لكن الفارق في كل يوم هو مقدار الألم الذي تشعر به، مقدار الوحدة التي تثقل قلبك، مقدار الحنين الذي يختنق داخلك. التكرار هو سيد المكان، لا شيء يخرقه إلا لحظة صغيرة من الكلام.

وفي كل حديث، في كل كلمة أسمعها أو أنطقها، كنت أجد شعاع أمل صغيرًا. كنت أتعلم شيئًا عن نفسي. وعن الآخرين، عن الصبر وعن التحمل. كل لحظة تواصل، مهما كانت قصيرة، كانت بمثابة نافذة تهبُّ عليَّ نسيمًا من الحياة، تجعل قلبي ينبض بحرية ولو للحظة. كنت أبدأ ألاحظ تفاصيل لم أكن ألتفت إليها من قبل: نظرة

تعبيرية، ابتسامة خافتة، صوت يختنق من الداخل... كل ذلك كان يربطني بالحياة التي حاول السجن أن يسلبها مني.

الكلام هنا لم يكن مجرد كلمات، بل كان وسيلة للنجاة، وسيلة لأتذكر أنني ما زلت إنسانًا، وأن قلبي ما زال ينبض، وأن هناك ما يستحق المقاومة. كل قصة، كل حديث، كل ضحكة خافتة، كانت تسرب الضوء إلى داخلي، وتخفف من ثقل الجدران، وتذكرني بأن الحياة، رغم كل القسوة، ما زالت حاضرة، ما زال الأمل ممكنًا، وأن الصبر والكلمة الحقيقية يمكن أن يكونا حبل النجاة من أعماق الظلام الذي يلف هذا المكان.

وفي هذا اليوم، استيقظت وفي صدري شيء من الأمل، ربما بفعل لقاء الأمس، وربما لأنني كنت أعلم أن أمي قادمة.

علمت أن الزيارة النسائية ستكون بعد الظهر، فاستعديت باكرًا، مشيت نحو الحمام، وقفت أمام المرآة كأنني أريد أن أذكّر نفسي. أنني إنسان، أن لي ملامح لا تزال موجودة، أن السجن لم يمحُ وجهي بعد، تفقدت ملامحي، أردت أن تراني أمي في أفضل حال، لا ضرب، لا انكسار، لا وجع ظاهر... على الأقل في عينيها.

وعندما اقتربت ساعة اللقاء، بدأت خطواتي تثقل، كل خطوة كنت أخطوها نحو غرفة الزيارة، كنت أقاوم فيها

رغبة بالبكاء، جلستُ أراقب الزائرات المحجبات، بعضهن مع أطفالهن، كل واحدة تحمل شيئًا من الحياة... وكنت أبحث بعينيَّ عن أمي.

حتى سمعت... ذلك الصوت الذي ارتجف قليلًا بين الحنين والخوف، الصوت الذي حمل كل دفء العالم كله في نبرة واحدة:

"وشلونك يا فالح؟".

لم أحتَج أن أرى وجهها لأعرفها، فالصوت وحده كان كفيلًا بإسقاط كل الجدار الذي بنيته حول قلبي طوال هذه الأيام الطويلة. التفتُّ ببطء، وكأن كل حركة تحتاج إلى شجاعة مضاعفة، ورأيتها... هناك، خلف الشبك الحديدي، مغطاة بالحجاب الكامل، لكن لم يكن هناك حاجة لكشف وجهها، كل شيء فيها، من عينيها إلى وقفتها، كان يقول لي: "أنا أمك، أنا موجودة هنا، رغم كل القيود".

اقتربت خطوة... ثم توقفت، جسدي كان يشتاق لحضنها، لكن قلبي يكاد أن ينفجر من المشاعر المتضاربة. تمنيت لو أستطيع الانقضاض نحوها، أن أرتمي في حضنها كطفل صغير، أن أشم رائحتها، أن أضمها وأخبرها كم اشتقت إليها، كم عانيت، كم اشتعل قلبي شوقًا لها... لكن كل شيء ممنوع، حتى أبسط لمسة، حتى العناق... ممنوع.

سكتت، وسكتُّ أنا... وكانت كل ثانية تمر كأنها ساعة، وكل لحظة صمت تتكلم بصوت أعلى من أي كلام. نظرت إلى وجهي في عينيها، وأحاول أن أرسم ابتسامة لا أستشعرها، أن أخفي التعب، الغضب، الألم، الوحدة... لم أرغب أن ترى دموعي، لم أرغب أن ترى ما خلف جدار هذا الوجه الذي صار باهتًا، جافًا، تكسوه رمادية السجن. كل شيء بدا باهتًا هنا، إلا هي، كانت الألوان كلها في صوتها ونظرتها، في حنانها الذي لا يعرف الحدود، في كل تفصيل صغير من حضورها الذي تجاوز الحاجز الحديدي.

تحدثنا، حديثًا غريبًا، مليئًا بصمت أكثر من الكلمات، كانت كلماتنا محدودة، لكنها حملت كل ما لم يُقَل: الحب، الشوق، الألم، القلق، الحنين... كنت أبحث في عينيها عن اليقين، عن الإيمان الذي يمنحني القوة لأتحمل كل شيء، عن الحنان الذي يخفف عني ثقل الأيام، عن الضوء الذي يملأ قلبي وسط ظلام هذا المكان.

ثم نطقت بالجملة التي اخترقت قلبي، كنسمة صيف بعد صحراء طويلة:

"أنا أعرفك زين يا فالح... لا يمكن تعمل شيء ما يرضيني".

كلماتها كانت كفيلة بأن تذيب كل التوتر، أن تزيل كل الخوف، أن تعيد الحياة إلى روحي المرهقة، شعرت بأن كل الألم، كل الوحدة، كل لحظة انتظار، كل دمعة

مكبوتة، كلها تحولت إلى معنى. شعرت بأن الحاجز بيننا لم يعد حاجزًا من حديد، بل مجرد مسافة زمنية قصيرة، وأن حبها يمكن أن يصل إلى قلبي مهما بعدت المسافات.

أخـذت أنظـر إليهـا في صـمت، أسـتمع إلى صـوتها، وأحاول أن أملأ قلبي بكل ما يمكن أن ألتقطه من دفء من حولها. كنت أرى التعب على وجهها، لكن كانت هناك قوة صامتة، قوة الأم التي لا تنكسر، التي تعرف ألم ابنها قبل أن ينبس بكلمة، التي تحمل كل شيء في صمتها وتفهمه بعينيها.

كل ثانية كانت تمر، شعرت بها كما لو أن قلبي ينبض ببطء خارج جسدي، شعرت بالحنين يغمرني، بالشوق الذي يكاد يمزقني، بالحب الذي يلتف حول قلبي كغطاء دافئ في ليلة شتاء قاسية. كنت أريد أن أحفظ كل لحظة، كل نبرة صوت، كل حركة، كل نظرة... كنت أعلم أن هذه اللحظات، رغم القيود، رغم الحاجز، رغم كل ما حرمني منه السجن، هي الحياة نفسها، هي الأمل الذي لا يمكن أن يسرقه مني أي جدار، أي قيود، أي ظلم.

في تلك اللحظة، شعرت أن كل شيء مررت به، كل ما عانيتـه، أصـبح ذا معـنى، لأن هنـاك مـن يعـرفني، مـن يفهمني، من يحبني بلا شروط، بلا أحكام... أمي. وكل ما بقي لي، أتـنفس صـوتها، أحـتفظ بـه في قلـبي، وأعلـم أن الحب، رغم كل القيود، لا يمكن أن يُسجن.

تلك الكلمات وحدها كانت أشد تأثيرًا من ألف محامٍ، أقوى من كل دفوع العالم، لأنها خرجت من فم أمي، ربّتني، علمتني، وعرفتني أكثر مما أعرف نفسي.. شعرت حينها أن كل الاتهامات، كل الشكوك، كل الظلم الذي أصابني، لم يعد له أي قوة... ما دام قلب أمي يؤمن ببراءتي. تلك الإيماءة الصامتة من الأم، كانت بمثابة شهادة براءة لا يملكها أي قاضٍ، أي محامٍ، أي حكم من هذا العالم القاسي.

لكن كما هي عادة الحياة هنا، لا شيء جميل يكتمل دون أن يقطعه الواقع؛ صوت السجان، حاد، كالصاعقة، يقطع اللحظة، يقطع الحنين بلا رحمة:

"انتهت الزيارة".

شعرت وكأنني أُنتزع من عالم آخر، عالم تنفست فيه قليلًا، عالم احتضنني فيه الحب والدفء، لأعود فجأة إلى واقعي الباهت، إلى زنزانتي الحديدية الحارة، كان شعوري كمن طار لحظات في سماء مفتوحة، ثم سقط فجأة دون مظلة، بلا استعداد لملاقاة الأرض القاسية.

عدت إلى سريري الحديدي، لكني لم أعد كما كنت، كنت أحمل في صدري دفئًا جديدًا، شعورًا يشبه الطمأنينة، وإن كان مؤقتًا، لكنه كافٍ لأشعر بأن الحياة لم تقف تمامًا هنا. كلمات أمي أصبحت زادي لبقية اليوم، وربما لبقية وجودي في هذا المكان. كل مرة أغمض فيها

عينيّ، أعيد في ذهني كل لحظة من الزيارة: كل كلمة، كل ابتسامة، كل رعشة خفيفة في صوتها، كل النظرات التي لم تكن بحاجة لكلمات لتشرح كل شيء.

والأجمل من كل ذلك... كانت الأحلام التي أستعيرها في الليل. حين أغمض عيناي، أُحلِّق بعيدًا حيث لا سجن، لا قضبان، لا عنابر، لا قيود، أحلم بالخروج قريبًا، بالعودة إلى بيتنا، بطبق والدتي المفضل، بنظرة فخر من أخي، بابتسامة أختي... أحلم بحرية، أحلم بالحب، أحلم بالأمان، دون رقيب، دون إذن، دون انقطاع.

في السجن... الحُلم هو الوطن المؤقت، هو المكان الذي يربطني بالحرية حتى لو للحظات. والزيارة... هي طوق النجاة، هي الدفء الذي يجعل للزمن معنى، يجعل للظلام قدرة على التحمّل، يجعل من الجدران البائسة مأوى ليس للعزلة فقط، بل للأمل، حتى لو كانت اللحظات قصيرة، فإن أثرها يدوم، يحفر في القلب، ويظل مرجعًا لكل ما هو جميل يمكن أن نحمله معنا وسط هذا الألم.

8
"يا فرحة ما تمت"

منذ الصباح الباكر، شعرت بقلبي متوترًا وكأنه متشابك بين الخوف والأمل، كأن شيئًا ما يضغط على صدري دون أن يتركني أتنفس بحرية.

هناك كلمة أمل تلخِّص كل ما تبقى من صبرٍ وحنين، بين القضبان الصامتة والحوائط الرمادية. كان وعدًا بالحرية، بالنجاة، بالقدرة على لمس العالم مرة أخرى، بعيدًا عن الصمت الذي يلتهم كل جزء مني، بعيدًا عن الضجر الذي يحاصرني منذ لحظة دخولي هنا. علّقت روحي على حروف تلك البشرى، وتمسكت بها رغم اليأس، وقلت لنفسي: ربما هذا اليوم يحمل الفرج، ربما يحمل شعاعًا من الضوء يكسر ثقل العتمة التي تحاصرني منذ دخولي للسجن...

لكن اليوم، ككل الأيام، بدأ بمحاولة للهروب من الواقع. حاولت النوم، لكن النوم لم يكن مريحًا، بل صار ملاذًا مؤقتًا، أقرب إلى الفخ، لأنه يحوّل الأحلام إلى كوابيس مرعبة، هذا الصباح لم يكن استثناءً.

الكابوس جاء واضحًا، حادًّا، كأنه يهمس في أذني: "ستبقى هنا لأشهر طويلة، قضيتك بلا ملف، ضياعك بلا خريطة، وكل الأبواب مغلقة أمامك، وكل الأمل ضائع". شعرت أن كل جزء مني يتشنج، أن أنفاسي تتقلص، أن قلبي يكاد ينفجر من ثقل الخوف والانتظار.

فتحت عينيَّ فجأة، أردت أن أرى أي شيء يعيدني إلى الحياة، أي بصيص نور يكسر الظلام. نظرت إلى الزنزانة، إلى السرير الحديدي الذي لا يعرف الدفء، إلى الحائط الذي يشهد كل لحظة ألم، وإلى الزاوية حيث يقف التلفاز الأبيض والأسود كنافذة صغيرة إلى عالم خارج هذا السجن، كل شيء بدا جامدًا، صامتًا، وكأنه يهمس لي: "لا شيء سيتغير، كل شيء كما هو، أنت هنا محاصر، وأنت وحدك".

لكن قلبي، رغم كل شيء، تمسك بخيطٍ رفيع من النور. كنت أسترجع ذكريات دافئة، لمسة أمي على رأسي، صوتها وهي تدعو لي بعد كل صلاة، ابتسامة أحد أصدقائي حين التقت أعيننا قبل أيام، لحظة ضحك خافتة بين الزملاء. كل ذكرى صغيرة كانت كشمعة مضيئة في قلب هذا الليل الطويل، تمنحني جرعة صغيرة من الصبر والقوة لأستمر، لأتحدى هذه اللحظات الصعبة، لأحلم ولو للحظة أن الفرج قريب.

كل ثانية هنا كانت تتسرب ببطء، كأنها ساعة كاملة، كأن الزمن نفسه يتهكم عليّ، شعرت أن الصوت القادم

من الممر، كل خطوة، كل صرير باب، كل همس بين السجناء، يحمل احتمالًا جديدًا: ربما أخبار جيدة، ربما نهاية انتظار طويل، ربما بداية حياة جديدة. ومع ذلك، كان الخوف يزداد مع كل لحظة، وكان قلبي يئن تحت وطأة الانتظار، تحت وطأة الصمت الثقيل الذي يلتهم كل جزء من روحي.

وفي هذا الصمت، تعلمت شيئًا مهمًّا: أن الأمل، حتى لو كان مجرد شعاع رقيق، شعاع بالكاد يُرى، قادر على أن يحافظ على نفسي، أن يمنح القلب دفء، أن يجعلني أتنفس بصعوبة، لكنه يجعلني أعيش... ويجعل لي معنى وسط هذا الجحيم الرمادي. كنت أعلم أن اليوم قد يحمل أي شيء، لكنني لن أتخلى عن هذا الشعاع، ولن أتركه يموت... حتى لو طال الليل، حتى لو ظنّ الجميع أن الأمل هنا ميت، فقلبي يعرف أنه حي، وأن كل لحظة صبر، كل دمعة مكبوتة، كل كابوس يُتغلب عليه، يقربني خطوة من الحرية، خطوة من الفرح، خطوة من لقاء يُعيد لي حياتي.

يوم الجمعة في السجن يختلف عن باقي الأيام، ليس بالراحة، ولا بالهدوء، بل بجرعة من الترقب والقلق التي تُضاف إلى الضغط المعتاد. يبدأ اليوم بخطبة على منبر مرتفع، ويلقيها واعظ يبدو وكأنه يمتلك كل الحقائق، حتى اكتشفت لاحقًا أنه تاجر مخدرات.

حاولت أن أستمع، لكن الكلمات تلاشت في أذني، كيف لمن تلطخ يده بفساد الدنيا أن يعظ عن الطهارة؟ شعرت بسخرية القدر، وبأن كل شيء هنا يمزج بين الحقيقة والتمثيل، بين الظاهر والخفي.

بعد الصلاة، دبّ الحراك في الزنزانة. الكل كان متوترًا، يتنقل بين أسِرَّة السجناء، يحاول أن يبدو هادئًا بينما قلبه يخفق بقوة؛ الجميع يترقب لحظة سماع اسمه للزيارة، وكل لحظة تمر، كل دقيقة تمرّ، تزيد من وطأة الانتظار على الروح. البعض، كما هو الحال دائمًا، لا يسمع اسمه، فيعود إلى فراشه مثقلًا بالخذلان، وكأن صوته لا يستحق أن يُذكر، وكأن اسمه ليس له وجود. نظراتهم تحمل الأسى، العيون تحكي عن فقدان الأمل، عن انتظار لم يُوفَّ.

نادوا باسمي فجأة، وانتابني شعور غريب، مزيج من الصدمة والخوف والأمل. تسللت ابتسامة حذرة على وجهي، كأن الأمل يحاول أن يحيا من جديد داخل صدري. وعندما اقتربت من الباب، رأيت الزوار: بعض أصدقائي، جاؤوا محمّلين بالكلمات الطيبة، بالابتسامات التي تمنحك شعورًا بالإنسانية، ووعودٍ ناعمة كحرير، قالوا لي:
"غدًا تُفرج".

لكن أيُّ غدٍ هذا؟ الغد الذي يعقبه غدٌ آخر من الانتظار، أم الغد الذي يأتي، لكنه لا يصل أبدًا؟ شعور متناقض، فرح وحزن في آن واحد. كنت أظن أن الحرية باتت تلوح لي من بعيد، لكني أعرف أن كل خطوة هنا محسوبة، وأن أي وعد قد يتحول إلى وهم.

بعد الغداء، وأنا بالكاد أتناول شيئًا، نودي اسمي مجددًا، ارتفعت أنفاسي، خُيّل لي أن الحرية تقترب... شعور كأن الشمس بدأت تشرق فجأة في زنزانة مظلمة. اقتربت كثيرًا، وكل لحظة تمرّ كانت تبدو أطول من العمر نفسه، حتى إن السجناء من حولي هنَّؤُوني، وعيونهم كانت تتلألأ ببريق يختلط فيه الفرح بالحسد، وبالارتياح المؤقت.

لكن ما إن وصلت إلى الباب، حتى انطفأ كل شيء. شعرت كأن الأرض تهتز تحت قدميّ، وكأن قلبي توقف عن الخفقان للحظة، وكأن الوعد تحول إلى سراب. لم يكن هناك ضحك، ولا بكاء، فقط صمت ثقيل يملأ المكان، صمت يخبرك أن الحرية هنا، ليست إلا لحظة عابرة، وأنك ما زلت أسيرًا بين جدران هذا السجن، بين انتظار مؤلم، وبين وعد لا يعرف موعده.

الخيبة كانت مرة، لكنها حملت معها درسًا: الأمل في هذا المكان ليس شعاعًا يضيء الطريق، بل شرارة صغيرة، تحتاج قلبًا صبورًا، وروحًا تتشبث بالضوء مهما اشتدت العتمة.

ومع ذلك، حتى في هذا الإحباط، بقيَ قلبي ينبض، بحياة مؤقتة، بحلم متجدد، وبإيمان أن الفرج قد يأتي... يومًا ما.

عـدت إلى الزنزانـة بخطـوات مثقلـة، والملابـس والمجلات في يدي كانت أثقل مما تبدو عليه. كان شعورٌ غريب يختلط بداخلي: فرحة طفيفة، وخيبة ثقيلة، وحنين لعالم كنت أعتقد أنه انتهى. جلست على السرير الحديدي، فتحت إحدى المجلات، وبدأت أصغي لكل صورة وكلمة كما لو كانت همسات من الماضي، من حياة ما زالت تنتظرني خارج هذه الجدران. كل صفحة كانت تحمل معها شيء من الأمل، شعور بأن هناك حياة تنتظرنا، وأن الوقت هنا، رغم بطئه القاتل، ليس نهاية كل شيء.

تحولت المجلات إلى طقس يومي، روتين صغير داخل العتمة، أتأمل صور الأطفال وأفكر في عائلتي... كل ذلك جعلني أشعر بأنني لم أفقد عالمي بالكامل، لم تكن مجرد تسلية، بل كان نافذة صغيرة أطل منها على الحرية، نافذة تذكّرني بأن حياتي خارج الزنزانة لا تزال حيَّة، وأن قلبي لا يزال ينبض بالأمل.

السجناء حولي، الذين هم أيضًا أسرى الصمت والانتظار، تسابقوا معي على المجلات، كلٌّ منهم يبحث عن لحظة فرح مؤقتة، عن كلمة تذكّره بما فقده، عن صورة تسرقه من هذا الواقع القاسي ولو لدقائق معدودة.

كان الضحك يتصاعد أحيانًا، وكان الحزن يظهر على وجوههم أحيانًا أخرى، في تداخلٍ غريب، وكأن كل صفحة من هذه المجلات تحمل في طياتها موجة من المشاعر المتناقضة، موجة تُحيي الروح رغم قيود المكان.

وعندما أُطفئت أنوار العنبر، بقيت مستيقظًا، أستمع لصمت الزنزانة، لأصوات أنفاس الآخرين، لأحلامهم التي لم تنتهِ رغم القيود. قلبت الأيام في رأسي، أعود إلى تفاصيل حياتي، وأفكر في أمي، في صوتها الذي أفتقده، في كل الأشياء الصغيرة التي كانت تجعل الحياة جميلة. شعرت بشيء من الدفء في داخلي، رغم الغربة، رغم القلق، رغم كل الظلم الذي عشته.

وفي تلك اللحظات الطويلة، أدركت شيئًا مهمًّا: حتى في هذا المكان الحار، حتى بين القضبان، يمكن للروح أن تجد نافذة صغيرة للحرية، يمكن للأمل أن يزهر من صفحات مجلات باهتة، ويمكن للذكريات والحياة الخارجية أن تمنحك طاقة تكفي لتواجه صباحًا جديدًا. كل صفحة، كل كلمة، كل صورة... كانت بمثابة أنفاس جديدة، تمنحني القدرة على الاستمرار، وتذكرني أن قلبي ما زال حرًا، وأنني رغم السجن، لم أفقد الإنسانية في داخلي بعد.

9
"السهرة المؤلمة"

جمعتنا سهرة صغيرة كما لو أننا نسرق لحظة من عمرٍ لا يرحم، جلسنا متقاربين، نتقاسم قطع البسكويت وكأنها وليمة حقيقية، ونرتشف العصير المهرّب بفرحٍ خافت، نخشى أن يسمعه الجدار قبل البشر. ضحكنا قليلًا... ضحكًا مترددًا، يشبه ضحك الأطفال حين يعرفون أن لعبتهم ستنتهي قريبًا. في تلك اللحظات، نسينا أننا سجناء، نسينا الحديد، والانتظار، والوجوه المتعبة، كنا فقط بشرًا يحاولون أن يتذكروا كيف يكون الفرح، ولو لدقائق مسروقة من قسوة الزمن.

لكن في السجن، لكل فرح ثمنٌ يُدفع فورًا. انفتح الباب فجأة، ودخل السجان كعاصفةٍ باردة، سقط الصمت علينا دفعة واحدة، وتبعثرت الضحكات كما يتبعثر الزجاج حين يسقط، بعضنا استطاع الهرب إلى أسرَّته، أما أنا واثنان من السجناء فتجمدنا في أماكننا، وكأن أقدامنا خذلتنا؛ اقتادونا إلى ساحة السجن، والخوف يمشي معنا خطوة بخطوة.

وقفنا أمامه، ونحن ننتظر الحكم، لم يحتَج إلى كثير من الكلام، قال ببرودٍ قاسٍ:

"اختاروا... الجلد أو التعليق".

كانت الكلمات بسيطة، لكنها حملت رعبًا لا يوصف. اختار رفيقاي الجلد، ربما لأن الألم المعروف أهون من المجهول. جُلِدا أمامي... وصراخهما لم يكن صوتًا عابرًا، بل كان سكينًا يشق صدري ببطء، كل ضربة كانت تصل إلى جسدي قبل أن تصل إليهما، وكل صرخة كانت تهز شيئًا عميقًا داخلي.

حين جاء دوري، اخترت التعليق. لم أعرف ما هو، لكني رأيت الجلد... وظننت أنني اخترت الأهون.

رفعوا يديّ إلى الأعلى، وثبتوهما في جدار الزنزانة، وتركوا جسدي يتدلّى بلا رحمة. في البداية ظننت أنني أتحمل، لكن بعد دقائق بدأ الألم يتسلل كالنار داخل عروقي. شعرت أن كتفيّ ينخلعان، وأن الدم توقف عن الدوران، وأن جسدي لم يعُد لي، أصابعي خَدِرت، أنفاسي تقطعت، ورأسي صار خفيفًا كأنه ينفصل عني.

تمنيت الموت... نعم، تمنيت أن أفقد الوعي فقط لأهرب من تلك اللحظة.

صرخت، توسلت، نسيت الكبرياء، نسيت الصمت الذي تمسكت به أيامًا، لم يبقَ في داخلي سوى إنسان موجوع يطلب الرحمة.

جاء صوت السجان باردًا كالحجر:

"باقي لك ساعتين".

ساعتان؟

بدت كأنها عمر كامل من العذاب، قلت له بصوتٍ مكسور:

"اجلدني... وريحني".

وكأن طلبي كان إذنًا جديدًا للقسوة، بدأ الجلد وأنا ما زلت معلّقًا، تلقى ظهري الضربات وجسدي عاجز حتى عن الانكماش. الألم لم يعد ألمًا محددًا... صار بحرًا يغرقني بالكامل، بعدها لم أعد أذكر شيئًا، انطفأ كل شيء، وغبت.

حين أفقت، كنت أكره ضعفي... لا لأنني بكيت أو صرخت، بل لأنني اكتشفت أن الإنسان، مهما ظن نفسه قويًّا، له حدّ ينكسر عنده. عدت إلى العنبر صامتًا، أمشي كظلٍ بلا روح، تسلقت على سريري العلوي بصعوبة، وجسدي يرتجف كأنه يتفتت قطعةً قطعة.

كنت هشًّا... مهشّمًا من الداخل قبل الخارج، بكيت، لا لأنني ضعيف، بل لأن القهر حين يعجز عن الكلام يتحول إلى دموع. دمعة واحدة فقط خانتني، سقطت دون إرادة مني على يد أبي عبود. لم يقل شيئًا... فقط وضع يده على يدي المتورمة، كانت لمسة صامتة، لكنها قالت ما عجزت الكلمات عن قوله: أنا معك.

حين أذّن الفجر، حاولت النهوض فلم أستطع، جسدي تيبّس، والألم قيّدني أكثر من الحديد نفسه، بقيت مستلقيًا، أستمع للأذان يتردد في العنبر، **وشعرت لأول مرة أن الإنسان قد يُسجن بجسده... لكن روحه تظل تبحث عن رحمةٍ تنزل من السماء، لا من البشر.**

جلستُ بعد الصلاة على سريري الحديدي، وأشعلت في داخلي شعلة صغيرة، شعلة تحاول أن تقول: "أنت ما زلت موجودًا... ما زلت إنسانًا". لم تكن الكلمات ضرورية، بل كانت النظرات الصامتة من زملائي السجناء تكفي. اقترب حسام وفهد، جلسا بجانبي بلا كلام، لكن حضورهما كنت أخفّف به وطأة الألم. شعرت بأنّ الجدران لم تعد تضغط عليّ وحدي، بل إن كل همس في الهواء هنا أصبح يحمل معنى... مشاركة، تعاطف، شعور بأننا جميعًا نعيش نفس القسوة ونقاومها على قدر المستطاع.

كنت أراقب وجوههم، بعضهم كبر بالسن قبل أوانه، تجعدت ملامحه بسبب الضرب والحرمان، وبعضهم شباب لم يعتادوا بعد على القسوة، ترتجف أصواتهم عند أقل توتر، لكن في كل عينٍ هناك قصة... قصة ألم، قصة انتظار، قصة قهر يُسكبُ في أعماقنا دون توقف. وفجأة شعرت أني لست وحدي في هذا السجن... ليس فقط الجدران هي ما تحاصرني، بل صمت النفس أحيانًا... لكنه هنا كان يذوب ببطء مع حضور الآخرين.

أغمضت عينيّ للحظة، وأحسست بأثر ذلك الدعم الصامت على قلبي، حتى ألم جسدي لم يعُد يسيطر وحده... بل أصبح جزءًا من لوحة كبيرة، لوحة معاناة جماعية، حيث كل ضربة، كل وجع، كل صرخة، تُمزج في قصتنا المشتركة.

تذكرت والدتي، وصوتها، ودفء يديها، لكن هذه المرة لم يكن الحنين وحده... كان شعورًا غريبًا بالامتنان، لأنّي أعيش هذه اللحظة مع أناس يفهمون الألم من دون كلمات، يفهمون الصمت من دون أن يُفسَّر خطأ، يفهمون الحزن من دون أن يُسخر منه.

في السجن، أدركت أن الحرية ليست فقط في الخروج من الزنزانة... الحرية الحقيقية تبدأ عندما تستطيع أن تحافظ على إنسانيتك وسط الألم، عندما تتشارك القسوة مع الآخرين في صمت دون أن تفقد ذاتك. كل كلمة لم تُقَل، كل دمعة لم تُبكَ، كل لمسة صامتة كانت بمثابة تذكرة أني ما زلت حيًّا، وأن قلبي ما زال ينبض بالقدرة على الإحساس، حتى وسط الظلام.

10

"على حافة الضوء"

في اليوم السادس... استيقظت من غيبوبة الألم، لا لأنني أردت الاستيقاظ، بل لأن الواقع كان أشد قسوة من أي حلم يمكن أن أهرب إليه. صوت المفاتيح وهي ترتطم ببعضها في الممر كان كصفعة توقظ الجسد قبل الروح، وصراخ العساكر يتردد بين الجدران كأنه إعلان يوم جديد من العذاب، يوم لا يحمل وعدًا إلا بالتحمّل.

فتحت عينيّ بصعوبة، وكأن جفوني أثقل من قدرتي على رفعها، جسدي لم يعد لي؛ كان مجرد كتلة من الأوجاع، كل موضع فيه يروي قصة ليلة لم تنتهِ بعد. ظهري يحترق كأن السياط ما زالت تنهال عليه، وأنفاسي قصيرة متقطعة، أما روحي... فكانت أكثر ما يؤلمني، لأنها لم تجد مكانًا تهرب إليه.

بقيت لحظات أحدّق في سقف الزنزانة، سقف رمادي بلا ملامح، لكنه بدا لي أوسع من العالم كله، ربما لأنه الوحيد الذي يسمع صمتي دون أن يسأل، تمنيت لو أستطيع البقاء ممددًا، أستسلم للتعب، أترك نفسي. تغيب من جديد... لكن الخوف كان أقوى من الألم، الخوف هنا

لا يهمس، بل يأمر. كنت أعلم أن النوم وقت التفتيش تهمة، وأن التهمة تعني بداية فصل جديد من الإهانة.

نهضت... لا بقوة، بل برعب، دفعت جسدي دفعًا، وكل حركة كانت كأنها تمزقني من الداخل. شعرت بأن الأرض تتحرك تحتي، وأن رأسي أثقل من أن يحمله عنقي، لكني وقفت لأن السقوط لم يعد خيارًا.

كانت الساعة تشير إلى السابعة، ومع ذلك شعرت أن اليوم قد طال قبل أن يبدأ. **الزمن في السجن لا يمضي، بل يتمدد ببطء مؤلم، كأنه يتلذذ بإرهاقنا، دقائق الصباح بدت كساعات، والهواء نفسه كان ثقيلًا، مشبعًا بأنفاس الخوف والانتظار.**

هواجس الليلة الماضية لم تغادرني، كانت تتصاعد في رأسي كدخان كثيف؛ كلما حاولت طرده، عاد ليخنقني أكثر. صور، أصوات، صرخات، ووجوه عابرة لا أعرف إن كانت حقيقية أم من صنع ذاكرتي المتعبة. شعرت أنني أحمل الليل معي، وأن الصباح مجرد ضوء باهت فوق ظلام داخلي لا ينطفئ.

لم أرغب في الكلام؛ الكلمات هنا تفقد معناها سريعًا، حتى النظر إلى الوجوه حولي كان يؤلمني؛ كل وجه كان مرآة لاحتمال مستقبلي، وكل عين تحمل قصة وجع تشبه قصتي أو ربما أشد منها. أدركت فجأة أنني لم أعد أرى

الناس كأفراد، بل كحكايات مكسورة تجلس متجاورة بصمت.

جلست في زاويتي، أحاول أن أجمع ما تبقى مني. كنت أشعر أنني ذائب داخل هذا المكان، أن اسمي بدأ يتلاشى، وأنني أصبحت رقمًا آخر في سجل طويل لا يهتم بمن نكون. ومع ذلك، في أعماقي، كان هناك شيء صغير يقاوم... شيء يرفض أن يختفي تمامًا.

ربما كان الأمل، أو مجرد عناد خفي يقول لي: ما زلت حيًّا... وما دام القلب ينبض، فالحكاية لم تنتهِ بعد.

اقترب مني وليد... بخطوات هادئة كأنه يخشى أن يوقظ أوجاعي قبل أن يصل إليّ. لم يتكلم في البداية، فقط جلس بجانبي، ثم أمسك بيدي. كانت يده دافئة على غير عادته، وثابتة كيد أخٍ يعرف أن الكلمات أحيانًا تُثقل الجرح بدل أن تداويه. في تلك اللحظة شعرت أن الصمت نفسه صار لغة، وأن المواساة قد تكون لمسة لا جملة.

كنت مطأطئ الرأس، عاجزًا عن رفع عينيّ نحوه. لم أرغب أن يرى في وجهي ذلك الانكسار الذي حاولت إخفاءه منذ دخولي السجن. كنت أخشى أن تنهار آخر طبقة من التماسك داخلي إن التقت أعيننا. بقي ممسكًا بيدي قليلًا، وكأنه يمنحني وقتًا لأتنفس، أو ربما ليجمع شجاعته هو.

ثم قال بصوت خافت، كأن الكلمات تصعد من بئرٍ عميقة داخل صدره:

"اليوم آخر يوم لك في السجن... من خبرتي، لن تبقى أكثر من ذلك".

تسللت كلماته إلى داخلي ببطء. لم تكن صاخبة، لكنها هزّت شيئًا ساكنًا في أعماقي. شعرت وكأن نافذة صغيرة فُتحت فجأة في غرفة خانقة؛ لم يدخل الضوء كاملًا، لكنه سمح للهواء أن يلامس روحي المتعبة. للحظة... فقط لحظة، تخيّلت السماء خارج هذه الجدران، وتذكرت كيف يبدو الشارع حين تمشي فيه بلا خوف، وكيف يكون الصباح حين لا يبدأ بصوت الأقفال.

لكنني لم أستطع أن أصدق بسهولة.

الأحلام في السجن قاسية... لأنها لا تموت فورًا، بل تكبر قليلًا ثم تُذبح أمامك. كم مرة صدّقت أن النهاية اقتربت؟ كم مرة تخيلت الباب يُفتح باسمي؟ كنت أعدّ الأيام، ثم أكتشف أن العدّ نفسه خدعة، وأن الزمن هنا لا يقاس بالساعات بل بخيبات الأمل.

تدفقت الأسئلة في رأسي كسيول جارفة: ماذا لو كان مخطئًا؟ ماذا لو كان هذا اليوم نسخة أخرى من الأيام السابقة؟ ماذا لو تعلّقت بالأمل مرة أخرى ثم سقطت منه؟ **في السجن، الخوف من الأمل أحيانًا أشد من**

الخوف من الألم، لأن الألم مألوف... أما الأمل، فإذا خذلك، يتركك فارغًا تمامًا.

شدّ وليد على يدي قليلًا، كأنه شعر بصراعي الداخلي دون أن أبوح به. رفعت رأسي أخيرًا ونظرت إليه، كانت عيناه تحملان يقينًا هادئًا، لا يشبه الوعود الكاذبة التي اعتدنا سماعها، لم يكن يعدني... بل يواسيني لاحتمال أن يكون صحيحًا أو خاطئًا.

في تلك اللحظة أدركت أن الحرية لم تدخل بعد، لكنها اقتربت بما يكفي لتوقظ الخوف القديم: كيف سأخرج؟ هل ما زال العالم ينتظرني؟ وهل أنا الشخص نفسه الذي دخل هذا المكان، أم أن جزءًا مني سيبقى هنا إلى الأبد؟

سحبت يدي ببطء، لا رفضًا، بل لأن قلبي بدأ يخفق بسرعة لم أعرفها منذ زمن. لأول مرة منذ أيام شعرت بشيء يشبه الرجفة... رجفة إنسان بدأ يخشى أن يتحقق ما كان يحلم به طويلًا.

وبين الأمل والحذر، جلست صامتًا، أراقب الباب الحديدي... كأنني أسمع خلفه خطوات قدرٍ يقترب، بطيئة... لكنها هذه المرة مختلفة.

اليوم... هو أول أيام العمل بعد إجازة العيد. في الخارج، تبدأ الحياة من جديد؛ أبواب المكاتب تُفتح، رائحة القهوة تعبئ الممرات، الضحكات تتعالى بلا خوف،

والأيدي تتصافح بحرارة اللقاء بعد غياب قصير. أتخيلهم الآن... زملائي يقفون في حلقات صغيرة، يتبادلون التهاني، يسألون عن السفر، عن العيد، عن الأطفال والهدايا، الحياة تمضي هناك ببساطتها المعتادة، كأن شيئًا لم ينكسر في هذا العالم.

وأنا... أجلس هنا على أرضٍ ساخنة، قاسيةٍ كواقعٍ لا يلين.

أحاول أن أغيّر جلستي كل دقيقة، لأن ظهري لم يعد يحتمل ثقل الألم، لكن الوجع صار جزءًا مني، يسكنني كما يسكن الظل صاحبه. أتحسس آثار السياط بأصابع مرتجفة، فأشعر وكأن جسدي لم يعد ملكي، وكأن كل ضربة حفرت ذكرى لا تُمحى.

تسللت إليّ فكرة موجعة...

هل سأل أحد عني اليوم؟

هل وقف أحد عند مكتبي الفارغ؟

هل لاحظوا غيابي أم مرّ الأمر عابرًا كأي يوم بعد إجازة العيد؟

تخيلت أحدهم يقول: "غريب... لم يأتِ اليوم". ثم آخر يجيب بلا اهتمام: "ربما تأخر". ثم تبدأ التخمينات... تتكاثر... تكبر... حتى تصل الحقيقة

إلـيهم، أو مـا يشـبه الحقيقـة. وفي تلـك اللحظـة، شـعرت برعشة خوفٍ أشد من خوف السجن نفسه.

كيف سينظرون إليّ؟

هل سأبقى الشخص الذي عرفوه؟ أم سأصبح قصة يُهمس بها في الزوايا؟

النـاس لا تـرحم... لـيس لأنهـا قاسـية دائمًـا، بـل لأنهـا تخـاف، والخـوف يجعلهـم يبتعـدون، يشـكّون، ينسـجون الحكايات ليحموا أنفسهم. **الحقيقة حين تخرج من فمٍ إلى آخـر، لا تـبقى كمـا هي؛ تُقطـع، تُضـاف إليهـا ظنـون، تُلـوَّن بالشـائعات، حـتى تصـبح شـيئًا آخـر لا يشـبه صاحبها.**

أخشى أن يتحول اسمي إلى همس.

أن يقـول أحـدهم: "هـل سـمعت بمـا حـدث لـه؟". فتصمت الوجوه لحظة... ثم تبدأ الحكاية، لا عني أنا، بل عن نسخة مشوهة مني.

في تلـك اللحظـة شـعرت أن السـجن لـيس الجـدران فقـط... بـل الخـوف ممـا ينتظـرني خارجهـا. هنـا أنـا رقـم، مجرد سجين بين سجناء، أما هناك... فأنا اسم، وتـاريخ، وسمعة قد لا تحتمل هذا الجرح.

رفعـت رأسي قلـيلًا، نظـرت إلى السـماء الضـيقة الـتي تظهـر مـن بـين القضـبان، كانـت بعيـدة... لكنهـا مـا زالـت

موجـودة، أدركـت أن المـوت هنـا لـيس مـوت الجسـد؛ لا أحـد يمـوت فعـلًا في السـجن. المـوت الحقـيقي هـو هـذا الانتظار الطويل، انتظار أن تعـود إنسـانًا كما كنت، بينما تخشى في داخلك أنك لن تعود أبدًا كما عرفك الناس... ولا كما عرفت نفسك.

في السجن، كل شيء يشبه النهاية... لكن النهاية لا تأتي.

فقـط أيـامٌ تتشـابه، وسـاعاتٌ تتمـدد، وقلـبٌ يـبقى معلّقًـا بـين مـاضٍ لـم يعـد، ومسـتقبلٍ لا يجـرؤ عـلى الوصول.

11
"التعايش مع السجناء؟"

تعايشت مع السجناء، لم يكن لديّ خيار... إمّا أن أعيش بينهم، أو أذوب في وحدتي حتى أختنق.

كنت أراهم في الأيام الأولى كأنهم ظلال داكنة تتحرك في ممرات السجن؛ وجوه قاسية، عيون حادة، أجساد تحمل آثار معارك لم أكن أعرف تفاصيلها. كانوا مصنَّفين في العالم الخارجي بكلمات ثقيلة: لصوص، قتلة، تجّار مخدرات. كلمات تُقال ببرود، لكنها حين تُلصق بإنسان، تُحوّله في المخيلة إلى وحش.

كنت أحذرهم... أراقبهم من طرف عيني، أتحاشى الجلوس قريبًا، أختصر الكلام، أحتفظ بظهري إلى الجدار. **كنت أظن أن النجاة في المسافة، وأن الأمان في الصمت.**

لكن السجن... يعلّمك أن المسافات لا تحميك، وأن الصمت الطويل يقتلك ببطء.

شيئًا فشيئًا، وجدت نفسي- أجلس بينهم، أتقاسم معهم لقمة الخبز، كوب شاي أتناوله معهم، دعاء خافت يُقال قبل النوم.

اكتشفت أن خلف كل تهمة حكاية، وخلف كل قسوة جرحًا قديمًا لم يُداوَ، أحدهم كان يتحدث عن أمه كطفلٍ فقد حنانها، وآخر يحتفظ بصورة والده في جيبه كأنها الأمل المنتظر. ذاك الذي وُصف يومًا بأنه "قاتل"، كان أول من يمد يده حين يتعثر أحدنا، وذاك الذي قيل عنه "تاجر سموم"، كان يخبئ لمسة حانية لمن انهار باكيًا في الليل.

حين تتقاسم مع إنسان لقمة... تسقط نصف الأحكام، وحين تتقاسم معه دعاءً... يسقط الباقي.
رأيت من يحتضن بكائي دون سؤال، من يربّت على كتفي بخشونة تخفي حنانًا خجولًا.

من يقول لي: "اصبر... كلها أيام"، وهو يقضي حكمًا يمتد لسنوات طويلة، كأنما يريد أن يمنحني من عمره صبرًا إضافيًا.

كانوا عزائي... حين غابت لذة الدنيا عني، كانوا المرآة التي أعادت لي شيئًا من إنسانيتي، حين كنت على وشك أن أكره نفسي.

قضيت ذلك اليوم أحاول الهروب...

الهروب من التفكير الذي يلتهم رأسي.

من الأسئلة التي لا جواب لها.

مــن القلــق الــذي ينــام بجــانبي كرفيــق ثقيــل. من صوت السوط الذي ما زال يتردد في أذني، كأن الهواء نفسه يعيد صدى الضربات.

كلما أغمضت عيني، عاد المشهد: الجدار الحديدي، يداي المعلقتان، صراخي الذي لم يشبه صوتي.

كنت أرتجف دون أن يلمسني أحد، أفزع من أقل حركة، أتحسس ظهري كأنني أتحقق أن جسدي ما زال قطعة واحدة.

حاولت أن أضحك معهم... أن أشاركهم حديثًا عابرًا عــن مبــاراة قديمــة، أو ســيارة حديثــة قــرؤوا عنهــا في المجلات، ضحكت فعلًا، لكن ضحكتي خرجت باهتة، كأنها لا تخصني، كانوا يعلمون أنني أهرب، لكنهم تواطؤوا معي... تركوني أهرب دون أن يفضحوا ضعفي.

في الليل، حين خفتت الأصوات، أدركت شيئًا مؤلمًا وجميلًا في آنٍ واحد:

أن الإنسان لا يُختصَر في أسوأ أفعاله.

وأننا، نحن الذين جُمِعنا هنا تحت سقف واحد، لسنا وحوشًــا... بــل أرواحًــا متعبــة، أخطــأت أو ظُلِمــت أو سقطت، لكنها ما زالت تبحث عن معنى، عن مغفرة، عن فرصة أخرى.

السجن سلبنا حريتنا...

لكنـــه كشـــف لنـــا هشاشـــتنا المشـــتركة، وفي تلـــك الهشاشة، وُلد بيننا شيء يشبه الأخوّة... أخوّة الألم.

12
"الخروج من السجن"

كانت سيارة الشرطة تنتظر بصمتٍ بارد، بابها مفتوح كأن الرحلة لم تنتهِ بعد. وقفتُ هناك... بين بابين: بابٍ خلفي يُغلق على لحظات من الألم، وبابٍ أمامي يقود إلى الحرية... جلست أنتظر، والكيس البلاستيكي بجانبي، يحمل كل ما تبقى من عالمي: ملابس باهتة، مجلات لم أقرأها، وأيامًا لا تُطوى بسهولة. كنت أراقب الداخلين والخارجين، وأشعر أنني معلق بين حالتين؛ لا أنا سجين بعد الآن، ولا أنا حرّ.

التفتُّ حولي، فرأيت بعض أهل الحي متجمعين قرب السور، وجوه مندهشة، بدت غريبة عليّ. عيونهم كانت تتبعني، بعضها فضولي، بعضها متردد، وبعضها يحمل شفقة حاولت أن تختبئ فلم تستطع.

تساءلت في داخلي:

هل يعرفون حكايتي؟

هل وصلت إليهم الحكاية مشوهة كما تصل بعض الحكايات؟

أم أنهـم فقـط يشـاهدون رجـلًا خـرج مـن السـجن... وهذا وحده يكفي ليصبح قصة؟

خفضت رأسي، وصعدت إلى السيارة بلا قيود. غريبٌ ذلك الشعور... أن تكون حرّ اليدين لكن قلبك ما يزال مكبّلًا، تحركت السيارة ببطء، والشوارع بدت أضيق مما كانت في ذاكرتي، كأن المدينة نفسها تضيق عليّ بعد كل هذا الغياب.

مررنا بجانب المقبرة... مقبرة والدي.

هناك تحديدًا، انكسر شيء داخلي.

لـم أنظـر طـويلًا، لكـن قلـبي ركـض نحوهـا، شـعرت بقربٍ غريب، كأنها المكان الوحيد الذي يفهم التعب دون أسئلة. لوهلةٍ خاطفة تمنيت لو أن الرحلة انتهت هناك، تحت التراب، حيث لا تحقيق من البشر ولا تهم ولا عيون تراقبك. تمنيت راحةً صامتة... فقط صمتًا بلا خوف.

لكن السيارة لم تتوقف.

وصلنا لمركـز الشرطة، ودخلـت كمـن يعيـد مشـاهدة مشـهدٍ يعـرف نهايتـه مسـبقًا، الجـدران باهتـة، الأصوات منخفضـة، والوقت يتحـرك بثقلٍ قاتـل. أدخلـوني مكتب التحقيـق، وجلس العسـكري خلـف طاولتـه دون أن يرفـع عينيه نحوي، كأنني ورقة إضافية في ملف مزدحم.

رمى أمامي ورقتين.

ورقة تحمل تهمة مكتوبة بخط يدٍ مرتعش... بلا ختم، بلا توقيع، بلا عدالة، وورقة تعهّد... كأنها اعتراف صامت بأن الحقيقة لا تهم.

قال بصوت خالٍ من أي شعور:

"أنت متهم ومدان... وقِّع، وانصرف لأهلك. الجلد معفي عنك إذا وقعت".

في تلك اللحظة، لم أشعر بالغضب... بل بالتعب، تعبٍ عميق، أعمق من القدرة على الاعتراض. نظرت إلى الورقتين طويلًا، وشعرت أنني أقف داخل مسرحية سيئة الإخراج، يعرف الجميع نهايتها إلا أنا الذي يُطلب منه أداء الدور الأخير.

أمسكت القلم، لم تكن يدي ترتجف خوفًا... بل إنهاكًا. وقّعت... لا اقتناعًا، بل استسلامًا للحظة. كنت أريد فقط أن تنتهي الرحلة، بأي ثمن.

حين رفعت رأسي... رأيت ابن عمي.

وقف هناك كضوءٍ دخل الغرفة دون استئذان. لم يقُل شيئًا في البداية، لكن ابتسامته كانت ممتلئة بما عجزت الكلمات عن حمله. رأيت في عينيه تعب الأيام التي قضاها وهو يتابع أخباري، ينتظر خروجي، يقف مكاني خارج الجدران.

في تلـك اللحظـة أدركـت أنـني لـم أكـن وحـدي كمـا ظننت، اقترب مني، وربّت على كتفي برفقٍ خائف، كأنني قـد أنكسرـ مـن لمسـةٍ قويـة. مشـيت خلفـه بخطـوات بطيئة... وكل خطوة كانت تفصلني أكثر عن السجن، لكنها تكشف لي حجم ما بقي داخلي منه.

خرجت أخيرًا، حرًّا... نعم.

لكـن الحريـة هـذه المـرة لـم تكـن صـاخبة، كانـت هادئة، متعبة، تشبه ناجيًا خرج من تحت الأنقاض... يحمـل جسـده معـه، بينمـا روحـه مـا تـزال تبحـث عـن نفسها بين الركام.

كنـت حيًّـا... وهـذا وحـده، في تلـك اللحظـة، كـان معجزة كافية.

خرجـت إلى الخـارج، رفعـت رأسي نحـو السـماء لأول مرة بلا سقفٍ فوقي، الهواء كان مختلفًا، واسعًا، حيًّا. لم أفعل شيئًا... فقط وقفت.

اكتشـفت أن الحريـة لا تـأتي صـاخبة كمـا تخيلناهـا، بـل تـأتي هادئـة... مـترددة... كأنهـا تخشىـ أن تصـدق نفسـها.

وفي تلك اللحظة، أدركت شيئًا غريبًا:

أن السجن انتهى خلفي... لكن رحلتي الحقيقية بدأت الآن، داخلي.

في الخـارج... لـم يكـن العـالم كمـا تركتـه، خطـوت أول خطـوة خـارج البوابـة، فشـعرت كـأن الأرض أوسـع ممـا أحتمل، وكأن الهواء نفسه يسألني:

هل عدت فعلًا؟

13

"بين العتبة والفجر"

كانت تلك الليلة ساكنة على نحوٍ غريب... سكونٌ لا يشبه الراحة، بل يشبه ما يأتي بعد العاصفة، حين تهدأ الريح، لكن الأشجار ما تزال ترتجف، جلست في المقعد بجوار ابن عمي، أراقب الطريق بصمتٍ طويل، بينما كانت أنفاسي تحاول أن تتعلم من جديد كيف تكون طبيعية خارج الأسوار.

أضواء الشوارع تمرّ فوق وجهي كأنها تفتّشني، كل مصباح يلمع ثم يختفي، تمامًا كالأيام التي ضاعت مني. الناس يسيرون في طرقهم العادية، سيارات تتجاوزنا، ضحكات تتسلل من نوافذ مفتوحة، وحياة كاملة تمضي دون أن تعرف أنني خرجت لتوّي من عالمٍ كان الزمن فيه متوقفًا.

كنت أراقب كل شيء بدهشة طفل عاد للحياة بعد غياب طويل. حتى الهواء بدا مختلفًا... أوسع، أخف، لكنه غريب على صدري، كأن رئتيّ اعتادتا ضيق الزنزانة فلم تعرفا كيف تتعاملان مع الحرية دفعة واحدة.

لم نتحدث كثيرًا؛ كان الصمت بيني وبين ابن عمي مريحًا، صمتًا يُفهم دون شرح، أحيانًا كان ينظر إليّ بطرف عينه، ثم يعيد نظره للطريق، كأنه يخشى أن يسأل سؤالًا يوقظ شيئًا أحاول دفنه.

وحين اقتربنا من الحي... بدأ قلبي يخفق بطريقة لم أشعر بها حتى لحظة خروجي من السجن.

الأزقة الضيقة التي حفظت خطوات طفولتي عادت تستقبلني، لكنني لم أعد الشخص نفسه الذي خرج منها يومًا. كل زاوية كانت تحمل ذكرى: صوت أبي حين كان يناديني، ضحكات إخوتي، خطوات أمي وهي تفتح الباب مع أول المساء. الذكريات سبقتني إلى البيت، أما أنا فجئت متأخرًا... مثقلًا بما لا يُرى.

توقفت السيارة أمام المنزل.

ذلك الباب... كم مرة خرجت منه دون أن ألتفت؟ وكم مرة عدت إليه وأنا مطمئن؟

أما الآن، فكنت أقف أمامه كغريبٍ يستأذن الدخول إلى حياته السابقة.

شعرت أنني على حافة عالمَين فعلًا. خلفي عالمٌ ترك في جسدي آثاره، وفي روحي ندوبًا لا تُرى.

وأمامي عالم ينتظرني بذراعين مفتوحتين... لكنه لا يعرف تمامًا من الذي سيعود إليه.

تخيلت أمي خلف الباب، ربما لم تنَم، ربما جلست تنتظر صوت السيارة منذ ساعات. تخيلت إخوتي، نظراتهم، أسئلتهم التي سيحاولون إخفاءها، وفرحتهم التي ستمتزج بالحزن حين يرون ما فعلته الأيام بي.

مددت يدي نحو المقبض... لكنها توقفت لحظة، لم أخف من الناس... بل خفت من الانكسار. خفت أن تذوب كل القوة التي تظاهرت بها، وأن أعود طفلًا بمجرد أن يُفتح الباب.

وانسكب الدفء دفعة واحدة بعد فتح الباب، وإذا بالحياة كلّها تقف خلفه.... أمي... تنتظرني يا ألله، أمي.

أصوات، دموع، دعوات، وأيدٍ تحاول أن تلمسني لتتأكد أنني عدت حقًا، في تلك اللحظة أدركت شيئًا بسيطًا وعظيمًا:

السجن لم يكن فقط جدرانًا وقضبانًا... بل جزءًا مني سيحتاج وقتًا طويلًا ليخرج.

أمي ... لم أرَ وجهها أولًا، بل شعرت بها، شعرت بحرارة حضورها قبل أن تقع عيناي عليها. اندفعت نحوي كأن الأيام التي فرّقتنا كانت جدارًا انهار فجأة، احتضنتني بقوةٍ لم أعرفها من قبل، قوة أمٍّ كانت تخشى أن يضيع ابنها من بين يديها، فتمسّكت به وكأنها تعيده إلى الدنيا من جديد.

كانت تبكي بصوتٍ خافت، بكاءً يشبه الدعاء أكثر مما يشبه الحزن، أما أنا... فانهارت كل الجدران التي بنيتها داخل السجن، لم أعد الرجل الذي حاول التماسك أمام السجّان، ولا السجين الذي أخفى وجعه عن رفاقه، عدت طفلًا، رأسه على كتف أمه، يبحث عن الأمان الذي سُرق منه.

اختلطت دموعنا حتى لم أعد أعرف أيها دموعي وأيها دموعها. كانت تربّت على ظهري بحنانٍ حذر، كأنها تخشى أن تؤلمني دون أن تدري، وكأن قلبها يعلم قبل عينيها بما خبأته الأيام في جسدي.

إخوتي التفّوا حولي، عناقٌ يتلوه عناق، ضحكة تخرج وسط البكاء، ثم صمتٌ ثقيل، ثم دموع جديدة، كانوا ينظرون إليّ طويلًا، كأنهم يحاولون مقارنة صورتي القديمة بمن يقف أمامهم الآن. رأيت في عيونهم فرحة النجاة... وخوفًا صامتًا من التغيير الذي أصابني.

البيت كان كما هو، لكنني لم أكن كما كنت. رائحة القهوة، صوت الأواني في المطبخ، سجادة المجلس، حتى الجدران... كلها مألوفة، لكنها بدت بعيدة، كأن بيني وبينها سنوات لا أيام.

الجميع كان يحتفل بعودتي، والكلمات تتزاحم: "الحمد لله على السلامة".

"عدت لنا".

لكن داخلي لم يكن يحتفل.

كنـت واقفًـا بيـنهم بجسـدٍ حـاضر... وروحٍ لا تـزال هنـاك، خلـف بـابٍ حديـدي يُغلـق كل مسـاء. ضـحكت معهم، لكن ضحكتي كانت متعبة. جلست بينهم، لكنني شعرت كأنني أراقب المشهد من بعيد.

كل شيء كان يميل للفرح... إلا أنا.

لـم يكـن الحـزن فقـط، بل شيء أعقـد... فـراغ واسـع، كأن الألم حين رحل ترك مكانه صمتًا ثقيلًا، كنت سعيدًا لأنني بينهم، نعم... لكنني كنت مرهقًا من الشعور نفسه، الحرية جاءت فجأة، أكبر من قدرتي على استيعابها.

وفي تلك اللحظة فهمت:

الخروج من السجن لا يعني أن السجن خرج منك.

كنت أجلس بينهم، أشاركهم الضحكات، أجيب عن أسئلتهم، وأهزّ رأسي مطمئنًا كلما قال أحدهم: "الحمد لله انتهت..."، لكن الحقيقة أن شيئًا في داخلي لم ينتهِ بعد.

كان داخـلي سـاحةً بعـد معركـة. هـدأت الأصـوات في الخـارج، لكـن الـدخان مـا زال يتصاعد في صـدري. نـارٌ لا تُرى، لكنها تأكلني ببطء... نار اسمها الحق الضائع، ونار اسـمها الكرامـة الـتي مُسّـت دون ذنـب، ونـارٌ أكـبر منهمـا جميعًا... شعور الظلم حين لا يجد بابًا يطرقُه.

كنت أبتسم لأجلهم فقط، أراقب أمي وهي تتحرك في البيت كأنها تستعيد أنفاسها بعد غرقٍ طويل، وأقول في نفسي:

لا يحق لي أن أزيد وجعها، كانت تنظر إليّ بين لحظة وأخرى، نظرة أمٍّ تحاول قراءة ما خلف الوجه. كنت أشيح بعيني سريعًا، أخشى أن ترى ما أخفيه... لأن الأمهات لا يخدعهن الكلام، بل يفضحنا الصمت أمامهن.

إخوتي كانوا يتكلمون، يضحكون، يستعيدون مواقف قديمة ليعيدوا الحياة إلى الجو. أما أنا فكنت أشاركهم الجلسة، لكنني في الحقيقة كنت أقاتل داخليًا... أقاوم ذكرى القيود، صوت الأبواب الحديدية، وقع الخطوات في الممرات، وصدى الصراخ الذي لا يغادر الأذن بسهولة.

كنت أقسم بيني وبين نفسي:

لن يروا انكساري، لن أبكي أمامهم، لن أجعل عودتي عبئًا جديدًا عليهم، يكفيهم ليالٍ قضَوها في القلق، يكفي أمي الدعاء الذي أنهك صوتها، يكفي إخوتي نظرات الناس وأسئلتهم.

أردت أن أكون خبرًا سعيدًا... لا جرحًا يعود معهم إلى البيت.

لكـن الحقيقـة القاسـية أن الألـم حـين يُحـبس... لا يمـوت، يتحـوّل إلى صـمتٍ ثقيـل، إلى شرود مفـاجئ، إلى تنهيدةٍ تخرج دون إذن.

كنت أشعر أن صدري أضيق من أن يحمل كل ما حدث، ومع ذلك كنت أضغط عليه بقوة، كأنني أخشى أن ينكسر أمامهم.

في تلك الليلة، حين هدأ البيت، وبدأ الجميع ينسحب إلى غرفتـه، جلسـت وحـدي في زاويـة المجلس. لأول مـرة منـذ خـروجي... سـاد الصـمت الحقـيقي، لا أصـوات، لا أسئلة، لا ابتسامات أضطرُّ لارتدائها.

عندها فقط أدركت شيئًا موجعًا:

أن أقسى ما في الظلـم... لـيس مـا يفعلـه بـك، بـل مـا يجعلك تخفيه عمّن تحب، حتى لا تؤلمهم.

كنت أجلس هناك، بين حـرارة البيت وروحـه، وبين حب أمي الذي لا يطالبه الزمن، وأشعر بكل لقمة أضعها في فـمي وكأنهـا مـرهم يـداوي الألـم العميـق الـذي تركـه السجن في جسدي وروحي. لم يكن الطعام مجرد طعام، بل رسالة حب صامتة، كأن كل وصفة، كل نكهة، كانت تقول لي:

"أنا هنا، وأنت لم تُفقد بعد".

أمي، بابتسـامتها الخافتـة، وبنظرتهـا الـتي لا تفـارق وجهي، كانت تقرأ ما بين السطور: تعبتَ، تعبت روحك كما تعب جسدك، لكنها كانت تقول بلا بصوت يسمع:

"لا بأس... كل شيء سيصبح أفضل، فقط كن معي هنا".

أخي الأصغر ضحك بخفوت، حاول تلطيف الجو، لكنه كان يشعر، كما أشعر، بأن قلبه مضغوط بالخوف والفرح معًا. بقية إخوتي كانوا يرددون كلمات عفوية، "رجعت لنا يا فالح!"، وكنت أبتسم ابتسامة ضعيفة، أشاركهم الفرح، لكن داخلي كان يزِنُ ألف حجر من الألم، من الصدمة، من الغربة التي لم تنته بعد.

مع كل لقمة، كنت أذرف دمعة صامتة، دمعة على أيام السجن، على الليالي التي لم أرَ فيها وجوهم، على الحنين الذي حرقني في الصمت. لكن كانت هناك قوة... قوة أمي، قوتها في حبها الذي لا ينكسر، في اهتمامها الذي يواسي أعماقي، في لمستها البسيطة التي أعادت لي الإحساس بأنني ما زلت حيًّا، وأن هناك من يحبني حتى لو الدنيا كلها وقفت ضدي.

وبين كل تلك المشاعر المتشابكة، فهمت شيئًا مهمًّا: السجن يمكن أن يأخذ مني الحرية، يمكن أن يحطم جسدي، يمكن أن يقتل البهجة، لكنه لا يستطيع أن يقتل الحب الذي لا يموت، الحب الذي جعل أمي تصنع لوحة

بألوان الحياة وسط الخراب... والحب، فقط الحب، يستطيع أن يعيد لي نفسي.

جلست على الفراش، جسدي منهك من التعب، وقلبي منهك من الحنين، أغمضت عينيّ، محاولًا أن أهرب، لكن الألم كان أقوى مني. كل ضربة، كل سوط، كل لحظة تعليق... كانت تتسلل إلى ذاكرتي بلا رحمة، كأن جسدي نفسه يروي قصة العذاب بصمتٍ قاتل.

حاولت أن أتنفس ببطء، أن أهدئ دقات قلبي، لكن كل حركة كانت تُعيد شعور الألم كما لو أن السياط لم تُرفع قط، وأن الجدار الحديدي ما زال يضم جسدي معلّقًا. شعرت بالبرد يتسلل إلى عظامي، رغم دفء الغرفة، وكأن روحي لم تعد تقوى على حمل الجسد المتعب.

كنت أسمع في عقلي أصوات السجناء، صرخاتهم، أنينهم، أراهم أمام عينيّ، وأحسست بوحشة غريبة. الوحدة هنا لا تعني الفراغ فقط، بل شعور عميق بأنك مُلقى وسط عالم من الألم، وأن لا أحد يسمعك، وأن كل لحظة فرح عابرة كانت سرابًا.

وفي وسط كل هذا، لم أستطع منع دمعة واحدة، صامتة، انزلقت على وجهي، ووقعت على يدي المرتجفة. كانت دمعة على جسدي، على روحي، على أيام اختطفت مني الحرية والطمأنينة، لكن في أعماقي، شعرت بنبض خفيف، بصوت داخلي يقول:

"لا تزال هناك حياة... لا يزال هناك أمل... مهما طال الليل، سيأتي الفجر..." وهذا الفجر، حتى لو كان بعيدًا، أصبح شعاعًا صغيرًا أنار لي روحي المتعبة.

استيقظت على صوت الأذان، جسدي متيبّس، وقلبي ما زال مثقلًا بآثار الأمس، حاولت النهوض، لكن كل حركة كانت كالسيف، وكأن الألم المادي يختلط بألم نفسي-أعمق. أستجمع شجاعتي، لكن الأفكار تتقاذفني بلا رحمة: صور السياط، وجوه السجناء، صوت السجان، وابتسامات أهلي حين احتضنوني... كل ذلك يثقل قلبي مرة أخرى.

كنت أراقب خيوط الضوء التي تتسلل من النافذة، تتناثر على الأرض، وكأنها تذكرني بأن العالم لم يتوقف، وأن هناك حياة تنتظرني رغم كل شيء، شعرت برغبة جامحة في البكاء، ليس كضعف، بل كتنفيس أيام من القهر المكبوت. حاولت أن أبتلع الدموع، لكن بعضها تسلل، قطرات حارّة على وجهي، تذكّرني أن الألم، رغم صمته، حاضر دائمًا.

أمي كانت في بالي، صورتها في ذهني، صوتها، لمستها، كلماتها الحانية. تمنيت أن أرى وجهها عندما كنت في السجن، أن ألمس يديها، أن أستمد من دفئها بعضًا من قوتي.

لكنـني علمـت أن الصـمت أفضـل الآن... الصـمت يحميها، ويحميني من إظهار هشاشتي، جلست أستعيد تـوازن روحي الممزقـة، وأحـاول أن أجـد في داخـلي قـوة لمواجهة يوم جديد، مع الألم، مع الخوف، ومع الأمل الصغير الذي لا يزال يلوح في أفق قلبي.

جلست على حافة فراشي بعد صلاة الفجر، جسدي منهـك وروحي متعبـة، لكـن داخـلي كـان يوشـك عـلى اكتشـاف شيء لـم أعرفـه قـبلًا: شـعور بالسـلام الهـش، المتولد من ألم طويل جدًّا. كل تلك الليالي التي قضيتها في الزنزانة، كل ضربات السوط التي شعرت أنها تشق جسدي من الداخل، كل لحظة خوف، كل صمتٍ ثقيل، أصبحت الآن جـزءًا مـني، جـزءًا مـن درس الحيـاة القـاسي الـذي لـم أختـره، لكنـني اضـطررت لتعلمـه. شـعرت وكأن السـجن حـاول أن يمـزق روحي، لكنـه أخطـأ... فقـد نجـت كـرامتي، وإن كُسرت قليلًا، فإن ما تبقى منها صار أكثر صلابة.

ابتعدت عن فراشي ببطء، وكل خطوة كانت تردد في صدري صدى الماضي: صـوت السـياط، صراخ السـجناء، صمت الليـالي الطويلـة، حـتى رائحـة السـجن الـتي بقيـت محفورة في ذاكرتي. شعرت أن كل جزء من جسدي يحمل قصة، كل ندبة، كل ألـم، أصبـح شـهادة على البقـاء، على النجاة من تجربة لم ينجُ منها سوى الأقوياء بصمتهم.

ذكـرت والـدي، الـذي رحـل وتـركني أواجـه الحيـاة، وأدركـت أن الـدروس الـتي علمـني إياهـا لـم تكـن فقـط في كلامه، بل في مثال حياته: الصبر، الثبات، والكرامة.

شعرت أن الروح لا تحتاج دائمًا إلى الدفاع، لكنها تحتاج إلى القدرة على التسامح مع نفسها، حتى لو كان العالم حولها ظالمًا.

ارتديت ملابسي بخفة، لكن كل حركة كانت تذكرني بالقيود التي تحررت منها للتوِّ. خرجت إلى الشارع، والهواء يملأ صدري، لكن الحرية لم تكن في الأبواب المفتوحة فقـط، بـل في القـدرة عـلى أن أتـنفس دون أن أُثقـل روحي بالخوف، دون أن أسمح للغضب أن يقيد قلبي. كل وجه مررت به، كل ضحكة، كل تحية، كانت تتسلل إلى داخلي، تعيـد لي شـيئًا مـن الثقـة بـالآخرين... بشيء مـا أعمـق مـن الحريـة الجسـدية، شـعور بـأن حيـاتي لا تـزال ملـكي، وأن الروح يمكن أن تحلق رغم القيود.

جلست مجددًا، معي قلمي وورقة بين يدي، وبدأت أسجل كل شيء: كل الألم، كل الفرح الذي سرقته لحظات قليلة في السجن، كل خوف، وكل خيبة أمل. لـم أكتب لأبـكي، بـل لأُخلـد لحظـات النجـاة، لأتـذكر **أن القـوة لا تُقاس بالضربات التي تلقاها الجسد، بل بالصبر الذي تبقَّى في القلب بعد كل سقوط.** وكل كلمة كنت أكتبها كانت بمثابة حرية صغيرة، نافذة أطل منها على نفسي، على قلبي، على الروح التي لم تُكسر بالكامل.

وفي تلك اللحظة، لأول مرة منذ زمن طويل، شعرت بسلام داخلي هادئ، شعور مختلف عن أي فرحة عابرة، شعور يقول لي:

"لقد نجوت، لم يُفقد شيء من جوهرك، والآن، حتى لو ظل العالم ظالمًا، فأنت ما زلت أنت، قويًّا بما يكفي لتحمل كل شيء، وحنونًا بما يكفي لتغفر لنفسك ولمن ظلمك".

هذا السلام، رغم هشاشته، كان أثقل وأغنى من أي شعور حرية جسدية عشتها من قبل. شعرت أني أعود إلى الحياة بعيون جديدة، ترى الألم من بعيد، لكنها لا تسمح له أن يقيد الروح بعد الآن. وكل نفَس أخذته، كل خفقة قلب، كانت إعلانًا داخليًا بأنني حي، وأن الروح قادرة على أن تكون حرّة... حتى لو بقي الجسد يتذكر ما مر به من قيود.

14
"ما تبقَّى من أيام السجن"

من لم يذق طعم السجن ظلمًا، لا يعرف كيف يمكن لأيام معدودة أن تمزق سنواتٍ من الطمأنينة، وكيف لزنزانةٍ أن تبقى في الذاكرة أكثر من بيت الطفولة.

الناس يظنون أن الزمن يُنسينا، لكنهم لا يعرفون أن هناك جروحًا لا يُجيد الزمن علاجها، بل يُتقن إخفاءها فقط.

مرت أربعون عامًا، لم تكن كافية لتجعلني أنسى. ذلك اليوم الذي اقتادوني فيه، لا لشيء، سوى أن رجل السلطة قرر أن أكون مذنبًا.

وذات مساء، جلست بين أصدقائي القدامى، الذين تقاسموا معي وجع السجن، وبعضهم لم ينجُ تمامًا من صدى القضبان في داخله. كنا نضحك على تفاصيل مرّت، ونسخر من ذكريات كنّا فيها صرحاء من كل شيء، ثم فجأة، ومن حيث لا أدري، قال أحدهم بنبرة فيها حزن دفين:

"تصدّق؟ في ناس للحين يظنون أننا كنا مذنبين، لأن رجل السلطة لا يخطئ"!

كأن أحدهم سحب الهواء من صدري، شعرت بوخزة في مكان قديم في روحي، ظننته اندمل منذ زمن، لكنه ما زال هناك، نائمًا كالألم، لا يستيقظ إلا عندما يُنادى عليه.

ثم سألني صديقي، بعينين ضيّقتين كأنهما تصوّبان سؤاله كسهم:

"ماذا تعمل لو شاهدت العسكري اللي ظلمنا؟".

شعرت أن قلبي عاد يخفق بذات الارتباك الذي خفق به يوم أُغلِق الباب خلفي في الزنزانة لأول مرة، لم أستطع أن أجيبه فورًا، كان ينتظر ردًّا صاخبًا، وربما أراد أن يسمع منّي وعدًا بالانتقام، أو على الأقل كلمات تقتص من ذلك الماضي.

لكني نظرت له بهدوء، وقلت:

"عشر سنوات، وأنا أنتظر اللحظة المناسبة للانتقام، كنت أستيقظ وأغفو على صورته".

استطردت قائلًا:

"تخيلت مئات السيناريوهات كيف يمكنني أن أردّ له الألم. لكن، كبرت يا صاحبي... ونضجت. وفهمت شيئًا مهمًّا، هذا الرجل آذاني مرتين...

الأولى: لما سلب حريتي، والثانية: لما سكن رأسي كل هذه السنين، وصرت أسير فكرة الانتقام".

ردّ عليّ صديقي بعينين ممتلئتين بالدهشة:

"طيب كيف طلعت من الدائرة؟".

نظرت إلى الوجوه حولي... بعضها تغيرت ملامحه، بعضها لا تزال تحتفظ بذلك الحزن في الزوايا، وكلهم كانوا ينتظرون كلمتي. فقلت بصوت خافت، لكنه حاسم:

"سامحته".

سكن كل شيء، حتى فنجان القهوة الذي كنت أحمله، العيون كلها اتجهت نحوي، كأنهم لم يفهموا، أو لم يصدقوا، فتابعت:

"سامحته ليس لأنه يستحق، بل لأني أستحق الراحة. هو سرق مني سنوات، لكني كنت أنا اللي أعطيته بعدها سنوات إضافية من حياتي، لما خلت تفكيري يدور حوله، وحول ألمي، وحول انتقامي".

قال أحدهم بصوت مكسور:

"بس كيف تقدر تسامحه؟ هذا حرمك من كل شيء، من حريتك، من شبابك، بدون ذنب!".

ابتسمت له، ابتسامة من يتألم ويعرف أنه انتصر رغم كل شيء، وقلت:

"بعض المعارك يا صديقي، يكون فيها الانتصار خسارة. والمحاكم الأرضية، لن تعيد لي حريتي

المسروقة، ولا تحذف لحظة واحدة من ليالي التوتر والقلق".

استطردت بعدها قائلًا:

"هنالك ملفات نغلقها، لا لأننا راضون عنها، بل لأننا نعرف أن هناك عدلًا أعظم، عند من لا يُخطئ، ولا يغفل، ولا ينسى".

ساد صمت عميق، ثم سألني أحدهم، بصوت أقرب للرجاء:

"وجدت السلام بعد هذا كله؟".

نظرت له بعينٍ فيها راحة نفسية، وقلت:

"السلام الداخلي نصنعه بأنفسنا، هو ليس هدية من أحد، ولا هو نتيجة محاكمة عادلة، هو قرار، أنا قررت أعيش، قررت ما أخلي الظالم يظل يتحكم فيّ، حتى بعد خروجي".

لحظات صمت بعد أن فاضت مشاعري، تكلمت بصوت هادي:

"الظلم من الغرباء مؤلم، بس ظلم القريب يذبح، ومع هذا، ما أقدر أعيش كل يوم وأنا أعدّ حساباتي القديمة، فيه ناس متخصصون في سرقة راحتك، مزاجك، توازنك... لا تعطيهم الفرصة. سلّمهم لله، وخذ راحتك".

انتهى الكلام... لكن ظلت العيون تتابعني، وكأنها ما زالت تبحث عن إجابة ما.

وربما، كما قلت في داخلي:

بعـض الأسـئلة لا تُجـاب بالكلمـات، بـل تُجـاب بالأيـام... وربمـا الأيـام، لا تـزال حُـبلى بالإجابـات.

15
"صـراحـة مـؤلـمـة"

انفجرت البنات بالبكاء، بكاءً لا يُكتم، كأنهن بكيْن عن كل السـنوات الـتي قضـينها في جهـل بهـذه الحقيقـة. أمـا الأبناء، فكانوا يحاولون التماسك، لكن عيونهم الفاضحة كانت تقول كل شيء.

ارتجف أحدهم، كاد أن يتكلم لكنه ابتلع كلماته. كانوا يعرفون أن نظرة واحدة إلى أخواتهم قد تفسد هذا التوازن الهش... توازن لا بد أن يبقى قائمًا حتى ينتهي والدهم من كل ما أراد قوله.

أكمل فـالح حديثه، ولـم يكـن في كل مـا قالـه رغبـة في تبريـر أو اسـتعطاف. كـان يسـرد فقـط، بـلا عتـاب، بـلا غضب، وكأنه يُلقي عن قلبه آخر ما تبقّى فيه من ألم.

تكلم فالح في ختام حديثه:

"الحقيقة قد تكون مؤلمة... لكنها أكثر راحة من الكذب. حملت هذا السر طويلًا، واليوم، أضعه بين أيديكم، لم أعد أملك من العمر لأخفي شيئًا".

ثم نهض بهدوء، متكئًا على عصاه، خطواته بطيئة، لكنها واثقة، عيناه كانتا تبحثان في وجوههم عن شيء... ليس الغفران، بل الفهم.

غادر المجلس دون أن ينبس أحدهم بكلمة. عيونهم كانت تتبعه، مزيج من الحزن، والفخر، والشفقة. لم يكن بينهم من يملك لسانًا يعلق به، ولا قلبًا يقسو ليسأل.

فالح قال كل شيء.

وبعده، ساد صمتٌ عميق... لكنه لم يكن كسائر الصمت، بل صمتًا يفتح بابًا لحياة جديدة، مبنية على الحقيقة، مهما كانت موجعة.

غادر فالح المكان بصمتٍ ثقيل، كأن الأرض نفسها كانت تئن تحت خطاه الأخيرة. رحل جسده، لكن شيئًا من روحه ظلّ يتيه بين الجدران، يتسلل خفيًّا إلى قلوب أبنائه. كانوا يرونه رجلًا صلبًا، يظنون أن الحياة مرّت عليه مرور العابرين، لا جراح فيها ولا انكسار.

لكن الذكريات الخبيئة أبت إلا أن تبوح بما كتمه الزمن. صندوق أسود، ظلّ موصدًا لسنوات، انفرج قفله ذات يوم، فانسكبت منه حكايات مثقلة بالوجع. صور متشققة بألم السنين، وشهادات دامية على معارك خاضها فالح بصمتٍ، كي لا يورثهم شيئًا من وجعه.

كانت الأسرار تتدفق أمامهم كطوفان، كل واحدة تجرّ وراءها ألف تنهيدة، وألف سؤال. تمنّوا لو أن الصمت بقي سيد الموقف، لو أن الأسرار واصلت سباتها في الظلام، بدل أن تتعذب تحت سطوة الضوء.

وهكذا، أدركوا متأخرين أن بعض الوجع حين يُعرّى، يصبح أقسى من أن يُحتمل.

المؤلف

صالح محمد الهلابي

كاتب وروائي من السعودية.

صدرت له عدة روايات بالسعودية ومصر ولبنان والمغرب.

صدر للكاتب عن دار بسمة للنشر الإلكتروني:

1-الزلزال يضرب.

2-تم القبض.

3- السلطعون.

للتواصل مع المؤلف

انضم إلى مجموعة دار بسمة على واتساب، من هنا

تصفح إصدارات أخرى عبر مكتبة دار بسمة، من هنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

❖❖❖

المحتويات

الإهداء..6
السلطعون 8
"الحكاية المسكوت عنها".........................9
"سرقة الحرية" 16
"اليوم الأول في السجن" 20
"العيد في السجن"..................................32
"انتكاسة الصمت" 46
"الانتظار واللقاء"...................................53
"تبادل الكلام مع السجناء" 63
"يا فرحة ما تمت"...................................71
"السهرة المؤلمة" 78
"على حافة الضوء" 83
"التعايش مع السجناء؟"...............................91
"الخروج من السجن"..................................95

"بين العتبة والفجر" 100
"ما تبقَّى من أيام السجن" 113
"صراحة مؤلمة" 118
المؤلف 121
صالح محمد الهلابي................................. 121

السلطعون

بين القضبان والحرية: حكاية إنسان خذلته الحياة

في قلب "الأدب الاجتماعي" الذي يغوص في تعقيدات النفس البشرية، تأتي رواية "السلطعون" للكاتب صالح محمد الهلابي لتطرح تساؤلاً موجعاً: ماذا لو سُرقت منك حريتك في لحظة لم تكن تتوقعها؟ بأسلوب أدبي دافئ ونبرة إنسانية صادقة، نصحب "فالح" في رحلة استعادة الذات، حيث يكتشف أن السجن الحقيقي ليس دائماً خلف الجدران، بل قد يكون في نظرات المجتمع أو في صمتنا الذي نختاره لحماية من نحب. إنها ليست مجرد قصة عن "تجربة السجن"، بل هي تأمل عميق في مفهوم "التضحية" و"الكرامة" في مواجهة عواصف القدر.

صالح محمد الهلابي

دار بسمة للنشر الإلكتروني
Bassmabook
00212771814934
darbassma1@gmail.com